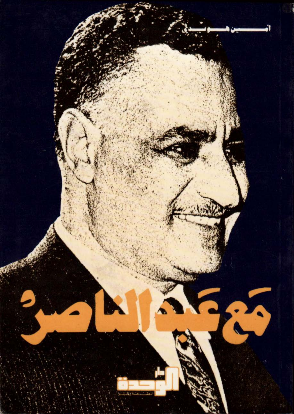


أمين هويدي

مع عبد الناصر

دار الوحدة
للطباعة والنشر

مَعَ عبدالناصرُ

مع عبد الناصر

أمين هويدي

دار الوحدة
للطباعة والنشر

١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

دار الوحدة
للطباعة والنشر

شارع ليون ــ الحمراء ــ بناية مبشر
ص.ب ١١٣/٦٣٨٤ ، هاتف ٣٥٣٨٨٥
برقيا د الوحدة ، بيروت ، لبنان

اهــداء

الى الذين يريدون أن يعرفوا الحقيقة التي اوشكت ان تهبط الى القاع . . .

مقدمة

اصبح من المعتاد ان يحل تاريخ ثورة يوليو — تموز ١٩٥٢ الاصيلة ويذهب دون ان يحتفل به احد الا في حدود خطاب يلقى هنا او هناك مليء بالملزات الموجعة التي ربما تحمل من معاني التجريح والقدح اكثر مما تحمل من معاني التمجيد والمدح .

كما اصبح من المعتاد ايضا ان تحل ذكرى وفاة « جمال عبد الناصر » وسط محاولات متعمدة لتغليفها بستار كثيف من الصمت والتجاهل .

ولا يدخل هذا الذي يتم في نطاق « مناخ عام » من النكران وعدم الوفاء . اذ اننا نلاحظ ان احتفالات كبرى تقام بمناسبة احداث اقل شأنا من تاريخ الثورة العربية الاصيلة ، وان احتفالات كبرى تقام ايضا بمناسبة تخليد ذكرى الكثيرين ممن فارقونا ولم يتركوا اثرا من تاريخنا كما تركه عبد الناصر .

واردت أن اخرج عن هذا التقليد فاحتفل بالذكرى العاشرة لوفاته بطريقتي الخاصة وهي اصدار كتاب بعنوان « مع عبد الناصر » اتحدث فيه عن زوايا معينة من حياته ومماته على حد سواء .

فتحدثت مثلا عن « عبد الناصر » كرئيس للوزراء في اخطر فترة مرت ببلادنا وهي الفترة التي اعقبت نكسة يونيو ــ حزيران ١٩٦٧ . . . ما الذي كان يشغل باله ويستحوذ على اهتمامه اثناء مناقشات المجلس ؟ كيف كانت علاقته مع وزرائه ؟ ما هي الازمات القليلة التي كانت تقوم بين وقت واخر وكيف كان يعالجها ويواجهها ؟ ما هي علاقته بمجلس الامة وما رايه في فصل السلطات ؟

واثناء مناقشتنا لهذه الموضوعات اعترضتنا بعض الاحداث التي صورت للرأي العام بطريقة بعيدة عن الحقيقة فراينا انه قد حان وقت اجلائها وتوضيحها او على الاصح تصحيحها وازالة الغموض عنها .

ثم تحدثنا بعد ذلك عن « عبد الناصر واتخاذ القرار » . . . لم نتعرض ابدا للقرارات المصيرية التي اصدرها عبد الناصر لاننا لو فعلنا ذلك لاحتاج ذلك منا مساحات واسعة لا يتسع لها المجال ، لان قراراته كانت كثيرة متعددة ، ولكننا اردنا ان نهيء المسرح لتقييم قراراته تلك لتجديد مفتاح شخصيته ، والظروف التي اصدر فيها قراراته . فصاحب هذا القرار دائما ليس حرا وهو يصدر قراره اذ هناك ارادات اخرى امامه وظروف ضاغطة تتفاعل معها رغباته واحلامه ، فلا يمكن الحكم على « قرار » الا اذا قيم في اطار

الظروف التي اتخذ فيها اذ ربما يكون قرار الامس غير صالح لمواجهة احداث اليوم أو الغد فالظروف تتغيـر وتتبدل ولا بد ان يكون القرار متطابقا مع الظروف التي تواجهه والا اصبح كالسهم الطائش الذي ينطلق في الفضاء دون هدف أو غاية .

ثم كان لا بد لنا ان نتحدث عن « استراتيجية عبد الناصر لازالة آثار العدوان » وربما ساعدني على ذلك هو انني كنت بعد النكسة قريبا من دائرة اتخاذ القرار مطلعا على الكثير مما كان يجري ويحدث . وكان من الممتع حقيقة ونحن نقوم بذلك ان ننظر الى رد فعل « استراتيجية » من « الجانب الاخر من التل » . وقد ظهر ذلك واضحا من مذكرات « هنري كيسنجر » التي اصدرها مؤخرا في كتابه « سنوات البيت الابيض » اذ ظهر واضحا من صفحاته رد فعل تحرك عبد الناصر بين « الخط الحرج الذي لا يجوز تجاوزه بواسطة الدولتين الاعظم » و « خط الامر الواقع » الذي رفضه وقاومه . كذلك كان رد الفعل واضحا في صفحات الكتاب عن الطريقة الماهرة التي كان يمزج بها عبد الناصر الدبلوماسية مع المعركة .

ثم تحدثنا عن موت عبد الناصر ... وكانت لنا وقفات امام بعض ما اثير وقيل لنوضح الحقيقة ونجلوها . لان جهودا بذلت ــ ويا للاسف ــ لاثارة

بذور الشك واطلاق سحب الدخان هنا وهناك لمنافـع شخصية زائلة ...

والشيء الغريب اننا ونحن نتحدث عن ذلك نحس ان « عبد الناصر » ما زال حيا بيننا يسمع ويرى مـا يجري على الساحة العربية الواسعة التي عاش مـن اجلها ومات تحت رايتها وعلى فمه ابتسامته الصامتة التي ربما تعبر عن الاسى وربما تعبر عن الرثاء ...!!!

القاهرة ــ مصر الجديدة .

أمين هويدي

الباب الاول

عبد الناصر رئيسا للوزراء

الفصل الاول : لماذا تولى عبد الناصر الرئاسنين في بعض الاوقات ؟
الفصل الثاني : ماذا كان يبحث فـــي مجلس الوزراء ؟
الفصل الثالث : كيف تعامل عبد الناصر مـــع وزرائه ؟
الفصل الرابع : أزمات داخل مجلس الوزراء .
الفصل الخامس : علاقة عبد الناصر بالمجلـــس

الفصل الاول

لماذا تولى عبد الناصر الرئاستين في بعض الاوقات

تواريخ رئاسته للوزارة ــ متى جمع بين الرئاستين ؟ ــ اللجنة الاستشارية وما اثير حولها ــ المشاغل الضخمة ــ صورة عامة عن مجلس الوزراء ــ القرار والمتابعة .

عبد الناصر رئيسا للوزراء

قام عبد الناصر وزملاؤه بالثورة في ٢٣ يوليو ــ تموز ــ ١٩٥٢ .

ومات الرجل في ٢٨ سبتمبر ــ ايلول ــ ١٩٧٠ .

وبذلك تكون فترة حكمه استمرت ١٨ عاما ، شهرين ، ٥ أيام .

وكان عبد الناصر طوال تلك الفترة هو المحرك

الاول للاحداث سواء بطريق مباشر او غير مباشر .
والاعتقاد السائد أن جمال عبد الناصر جمع بين رئاستي الجمهورية والوزارة طوال تلـــك الفترة او اغلبها على الاقل الا أن هذا الاعتقاد بعيد عن الواقع .
يظهر ذلك جليـــا باستعراضنا لاسماء رؤساء الوزارات في تلك الفترة :

صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا ١٩٥٢/٧/٢٤
اللواء اركان حرب محمد نجيب ١٩٥٢/٩/٧
بكباشي (مقدم) اركان حرب جمال عبد الناصر ٢٥/٢/١٩٥٤
اللواء اركان حرب محمد نجيب ١٩٥٤/٣/٨
بكباشي اركان حرب جمال عبد الناصر ١٩٥٤/٤/١٧
الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٦/٦/٢٥
الدكتور نور الدين طراف ١٩٥٨/١٠/٧ (رئيـــس المجلس التنفيذي للاقليم الجنوبي أيام الوحدة المصرية السورية) .
السيد كمال الدين حسين ١٩٦٠/٩/٢٠ (رئيس المجلس التنفيذي للاقليم الجنوبي ايـــام الوحدة المصريـــة السورية) .
الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٦١/١٠/١٨
السيد علي صبري ١٩٦٢/٩/٢٩
السيد زكريا محي الدين ١٩٦٥/١٠/١
السيد محمد صدقي سليمان ١٩٦٦/٩/١٠

الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٦٧/٦/١٩ حتى ٩/٢٨/ ١٩٧٠ .

وبهذا يسجل التاريخ فترة تقرب من سبعة سنوات جمع فيها الرئيس الراحل بين الرئاستين : رئاسة الجمهورية ، ورئاسة الوزراء .

وهذا عكس ما يروجه البعض عن حسن نية احيانا او عن سوء قصد احيانا اخرى .

بل اذا تمعنا في الاوقات التي جمع فيها الرجل بين الرئاستين لوجدناها اوقات الاحداث الجسام .

● ففي الفترة من ١٩٥٤/٢/٢٥ حتى ١٩٥٤/٤/١٧ تولى الرجل رئاسة الوزارة اذ كانت البلاد تمر وتئنذ فيها عرف « بازمة مارس او اذار » وهي ازمة هددت الثورة بالانحسار وانقسم فيها المجلس على نفسه فكان لا بد من تركيز السلطة في يد واحدة هي يد قائد الثورة لتجتاز البلاد تلك الفترة الصعبة من تاريخها .

● واستمر رئيسا للوزراء حتى عام ١٩٥٨ اذ مرت البلاد في ذلك الوقت بأحداث كبرى تم فيها توقيع اتفاقية الجلاء ، وكسر احتكار السلاح بعقد الصفقة الاولى للتسليح مع تشيكوسلوفاكيا ، ثم تأميم قناة السويس ، ثم انتهت بالعدوان الثلاثي على مصر وما ترتب عن ذلك من احداث وتطورات .

● ثم عاد فتولى رئاسة الوزارة مرة اخرى بعد انفصام الوحدة مع سوريا اذ اصبح التهديد قاب قوسين او ادنى من القاهرة ذاتها بعد ان نجحت الرجعية في فصل جناحي الجمهورية العربية المتحدة وتحطيم الوحدة حلم العروبة واملها المنشود .

● ثم عاد ليحتفظ لنفسه برئاسة الوزارة مرة اخرى عقب النكسة عام ١٩٦٧ واستمر يجمع بين الرئاستين الى أن مات في ١٩٧٠/٩/٢٨ .

ويتضح من الحقائق السابقة ان عبد الناصر حينما احتفظ بالرئاستين في تلك الفترة القصيرة من حكمه لم يكن ساعيا الى السلطان بقدر ما كان متصدرا لتحمل المسؤولية التي فرضتها الظروف عليه فما كان يتردد في مواجهة الرياح العاصفة وما كان يتأخر عن الجمع بين اعباء المنصبين تحقيقا للمصلحة العليا للبلاد وسط الانواء العاصفة التي كان عليه ان يقود فيها دفة الحكم رافضا الدخول ضمن دوائر النفوذ مصرا على الا تستمر مصر ذيلا كما عاشت طوال عمرها رافعا لمبادىء جديدة عاش من اجلها ومات في سبيلها . . .

ووقت رئاسته للوزارة كان حريصا على ان يشكل « لجنة استشارية » الى جواره واجبها دراسة الموضوعات التي يأمر « الرئيس » بدراستها او الموضوعات الهامة التي تفرض نفسها ثم رفع ما تراه

من توصيات أو بدائل اليه . وكان تصرف عبد الناصر ازاء ما يرفع له من أقتراحات هو اما الموافقة الصريحة بكلمة « اوافق » او الاعتراض الصريح بكلمة « لا اوافق» أو طلب « مزيد من الدراسة » او تنزل الورقة بيضاء دون تأشيرات او تحجز الاوراق عنده الى ما شاء الله. وكانت سكرتارية الرئيس للمعلومات تبلغ الجهات المختلفة تأشيرات « الرئيس » .

وفي اواخر الخمسينات كان يرأس اللجنة الاستشارية السيد علي صبري وزير شؤون رئاسة الجمهورية وكان اعضاؤها هم : محمد عبد القادر حاتم مدير مصلحة الاستعلامات في ذلك الوقت والسيدين حسين ذو الفقار صبري ومراد غالب المستشارين بالرئاسة وامين هويدي نائب رئيس المخابرات العامة.

وبعد النكسة كانت اللجنة مكونة من شعراوي جمعة وزير الداخلية وامين هويدي ـــ وزير الحربية ثم رئيس المخابرات العامة ثم وزير الدولة ــ وسامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات وكان ينضم اليها احيانا محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام ووزير الاعلام او بعض الوزراء الاخرين اذا استدعت الظروف ذلك .

واثناء سفر الرئيس الى الخارج كان السيد انور السادات نائب الرئيس يرأس اللجنة ليبت فيما يرفع له

من اقتراحات أو يؤجل ما يراه لحين عودة الرئيس من الخارج .

وقد قيل كلام كثير عن هذه اللجنة الاخيرة وكتب البعض عنها كلاما تنقصه الدقة وينحو الى التضليل والتشكيك . بل كانت هذه اللجنة محل اهتمام المحققين اثناء التحقيق فيما اسموه قضية « ١٥ مايو — ايار — ١٩٧١ » والشيء الغريب حقيقة أن بعض المتقولين كان من بين من حضروا اجتماعات هذه اللجنة ... قيل عنها انها كانت توجه الحكم من مصر وقيل عنها انها كانت تفرض آراءها على عبد الناصر!!!

والكل يعلم ان عبد الناصر لم يخضع في حياته لفرد من الافراد او لجنة من اللجان والا كان في هذا — ان صدق — نفي لما قاله نفس هؤلاء عن ديكتاتورية نسبوها الى الرجل .

ولكن كيف كان يعمل مجلس الوزراء برئاسة عبد الناصر ؟ وفي اجابتي عن هذا السؤال سأقتصر حديثي عن الفترة التي عاصرتها كوزير في مجلس الوزراء الذي رأسه عبد الناصر وبالتحديد في الفترة من ١٩/ ٦/١٩٦٧ حتى وفاته في ٢٨/٩/١٩٧٠ .

كان مجلس الوزراء يعقد جلسة اسبوعية تستغرق وقتا لا يزيد في اغلب الاحيان عن ثلاث ساعات . وما اظن ان عبد الناصر تخلف عن واحدة من تلك الجلسات او اجلها الا تحت مشاغل ضاغطة او

توعك شديد الم بصحته . بل اذكر جيدا – ولعل الزملاء جميعا يذكرون – انه كان يحضر احيانا وعلامات الالم الشديد واضحة على وجهه من التهابات المفاصل التي بدأ يشعر بها وكذلك العرق الغزير وهو يتصبب من جبهته . وبالرغم من ذلك فانه كان يصر على ان تستمر الجلسة حتى نهايتها .

وعلينا أن نقيم ذلك في ضوء الاعتبارات الاتية :

● المشاغل الكثيرة التي كانت تعتصره في ذلك الوقت نتيجة لظروف النكسة واحتلال الارض .

● اهتمامه الزائد بشؤون القوات المسلحة وحضوره لكثير من المؤتمرات التي تعالج مشاكل اعادة بنائها او المناورات والتدريبات المختلفة التي كان يحرص على حضورها .

● حضوره الاجتماعات المنتظمة للمؤسسات القائمة : اللجنة التنفيذية العليا واللجنة المركزية والمؤتمرات القومية للاتحاد الاشتراكي ، والتي كان يحرص اشد الحرص على انعقادها في مواعيدها المقررة .

● المؤتمرات الشعبية في المناسبات المختلفة المتعددة .

● مقابلاته العديدة من رجالات مصر والبلاد العربية وللزائرين من مختلف العالم .

● سيل المذكرات والتقارير التي كان عليه ان

يطلع عليها ويتخذ فيها قرارات مصيرية .

● الاضطراب الصحي الذي تفاقم بعد النكسة والذي انتهى بوفاته .

ولذلك لم يكن غريبا أن عبد الناصر لم تكن لـــه حياة اجتماعية خاصة . كان يقضي معظـم وقته بين طابقي منزله البسيط في منشية البكري ... الطابق الاعلى للنوم والطابق الاسفل لاعماله المكتبية ولاستقبال زائريه .

وكان من عادة « الريس » ان يحضر متأخرا عن الموعد المحدد لانعقاد المجلس ربما بساعة كاملة . وكان هدفه من هذا التأخير هو أن يتيـــح للوزراء فرصة ليجتمعوا مع بعضهم البعض ليتناقشوا فيما يعن لهم من امور اذ ان مسؤولياتهم الكثيرة ما كانت تتيح لهم مثــل هذه الفرصة للقاء ، ولا شك ان امورا كثيرة كانـــت تعالج في تلك الفترة التي كان على الوزراء ان يمضوها في انتظار الرئيس .

وكان هناك ثلاث قاعات مجهزة لانعقاد مجلـــس الوزراء : القاعة الكبرى بمبنى الحكومة المركزية بمصر الجديدة والذي يجري تحويله الان الى فندق سياحي كما كان من قبل ، قاعة اخرى في مبنى رئاسة مجلس الوزراء أمام مجلس الشعب ، والقاعة الثالثة فـــي قصر القبة . وفي هذه القاعة الاخيرة كان يعقد الرئيس

عبد الناصر اجتماعات مجلس وزرائه .

وكان هرولة رجال الصحافة والتلفزيون والاذاعة بمثابة اعلان عن وصول الرئيس فياخذ الوزراء اماكنهم في انتظار دخوله الى القاعة فـــي خطاه السريعة الواسعة ووراءه الاخ محمد احمد سكرتيره الخاص في ذلك الوقت حاملا حقيبة الاوراق التي كانت تكبر وتصغر على حسب ما تحتويه .

واذا كان الرئيس في حالة نفسية طيبة كان يدخل القاعة وابتسامة متزنة على فمه ... ويحيي بعض الزملاء بكلمة هنا وكلمة هناك ... ابتسامة لهـذا او لذاك ... ونادرا ما كان يحيي احدا بالمصافحة باليد الا اذا كان من باب المجاملة لسبب مــن الاسباب او تعبيرا عن تقديره الصامت لعمل قام به احد الوزراء .

اما اذا كان « الريس » في حالة نفسية متعبة فانه كان يدخل القاعة في خطوات سريعة وقد اكتسى وجهه بعلامات الجد ويقصد مقعده دون ان ينظر الى ما حوله .

وبعد انتهاء رجال الصحافة والتلفزيون من التقاط الصور التقليدية ينصرف كل الى حال سبيله وربما انتظر البعض منهم في القاعة المخصصة لهم في انتظار البيان الرسمي عن اجتماع المجلس الذي كان يمليه عليهم اما وزير الارشاد او وزير الدولة لشؤون مجلس

الوزراء بعد انتهاء الجلسة .

واذا انصرف رجال الصحافة يغلق باب القاعة . وتبدأ الجلسة .

واثناء انعقاد الجلسة كان الوزراء يطلبون ما يشاءون من مشروبات ساخنة او باردة اما « الريس » فكان دائما يكتفي بكوب من الليمون المثلج يوضع امامه صيفا او شتاء واحيانا كان يتناول فنجانا « مضبوطا » من القهوة .

وكان من عادة « الرئيس » أن يدخن كثيرا اثناء انعقاد الجلسة ... وكان يخيل لي وانا اراقبه اثناء التدخين انه يكاد « يقضم » السيجارة التي في يده ... يأخذ منها « نفسا » عميقا بين الحين والحين . ولكنه نزولا على أمر الاطباء ـ بعد أن اقتضت حالته الصحية ذلك ـ اقلع عن التدخين الى غير رجعة . واذكر أن الوزراء « المدخنين » اتفقوا وقتئذ على عدم التدخين اثناء انعقاد الجلسة مجاملة « للريس » ومراعاة لشعوره الا انه احس بذلك من فوره والسح في ان يمارس الجميع هواياتهم في التدخين على الاقل حتى يضع قوة ارادته تحت الاختبار ...!!

وكان يتم تسجيل كل ما يدور في المجلس من مناقشات وقرارات بأجهزة تسجيل بواسطة سكرتارية الرئيس للمعلومات التي كانت تحتفظ بأشرطة التسجيل لديها كسجلات تاريخية للمجلس . وفي الوقت نفسه

كان سكرتير عام الحكومة يحضر جلسات المجلس ويدون مختصرا مفيدا لما يدور كما يسجل القرارات بمنتهى الدقة ليتم توزيعها بعد ذلك على الوزارات المختلفة حتى تعمل على تنفيذها .

ولم يكن صدور القرار هو نهاية المطاف بل كانت مرحلة المتابعة تبدا بعد ذلك . وكان وزير الدولة يقوم بهذا الواجب ويرفع تقارير دورية بذلك الى «الريس» على شكل جداول يوضح فيها القرار وتاريخ صدوره والخطوات التي تمت لتنفيذه او الموانع التي تحول دون تنفيذه . وكان الرئيس يطلع على هذه التقارير ويناقش الوزراء فيها للتغلب على الصعوبات التي تحول دون سرعة التنفيذ .

واحيانا كانت ترفع تقارير متابعة يومية عن بعض الموضوعات الهامة كانتشار وباء « الكوليرا » مثلا او عن تطورات موقف سياسي معين له تأثير مباشر على الجمهورية .

اما عن الخطة الانتاجية للدولة فكان وزير التخطيط يتقدم بتقرير متابعة كل ثلاثة شهور عن مدى سير العمل في مشروعات الخطة وما تم تحقيقه لزيادة الانتاج ومستوى دخل الافراد واي تعديلات يتطلبها الموقف . وكان المجلس حينئذ يخصص اكثر من جلسة لمناقشة هذا التقرير .

وفي مجال المتابعة ايضا كان وزير الخزانة يقوم بعرض الشؤون المتعلقة بالميزانية بين وقت واخر لادخال التعديلات المناسبة في اوجه الانفاق لمواجهة متطلبات عاجلة طارئة للقوات المسلحة مثلا تقتضي اجراء تعديلات مختلفة في ابواب الميزانية .

اذن كانت متابعة تنفيذ القرارات تنال عناية كاملة من مجلس الوزراء بل كان يخصص لها جلسات خاصة كما سبق التوضيح . وخزائن مجلس الوزراء حافلة بتقارير المتابعة تلك وتثبت في الوقت نفسه ان عملا كبيرا كان يتم . . . وأن قرارات خطيرة كانت تتخذ . . . وأن مناقشات غنية كانت تجرى .

وكان كثير من الموضوعات التي تناقش في مجلس الوزراء يتم عرضها في اللجنة التنفيذية العليا ، او في اللجنة المركزية ، او في المؤتمرات القومية . فمثلا الموضوعات المتعلقة بميزانيــة الدولة ، او الخطة الانتاجية ، او الموضوعات التي تتعلق ببعض الشؤون الداخلية كاضطرابات كانت تحدث احيانا بين صفوف الطلبة أو العمال كل ذلك كان يناقش في تلك الجهات في وقت واحد وربما تم عرض ذلك ايضا في الصحافة واجهزة الاعلام والندوات .

هذا كان يحدث وبصفة مستمرة . ربما نسيه البعض تحت وطأة الاحداث ، وربما تناساه البعض

تمشيا ومسايرة للاحداث .

ولكنه كان يتم رغما عن النسيان او التناسي .

ولكن ماذا كان يدور في مجلس الوزراء ؟ هـــذا سيكون حديثنا في الفصل التالي باذن الله . . .

الفصل الثاني

ماذا كان يبحث في مجلس الوزراء ؟

الموضوعات العامة والموضوعات المدرجة في جدول الاعمال ـ الرئيس وشنطة الخبز ـ الطلبات الجماهيرية فوق كل اعتبار ـ الوزير الحزبي والوزير السياسي ـ الانتقال الى الجماهير وليس العكس ـ الجماهير ليست وحدة عسكرية ـ واسقط في يد الوزير ـ الكلمة للجميع ـ اللجان الوزارية ـ مبادىء تحدد وحدة الفكر داخل مجلس الوزراء .

تواعدنا في الفصل السابق على الحديث عما كان يدور في مجلس الوزراء الذي كان يراسه جمال عبد الناصر ... وما علينا الان الا ان ندخل مباشرة في الموضوع .

كانت جلسة مجلس الوزراء تنقسم دائما الى فترتين :

الفترة الاولى وتبحث فيها الموضوعات العامة ، والفترة الثانية وتبحث فيها الموضوعات المدرجة في جدول الاعمال .

واحيانا كثيرة كانت مناقشة الموضوعات العامة تستغرق الجلسة بطولها .

والموضوعات العامة كانت موضوعات تتعلق بالمصالح المباشرة للجماهير يرى الرئيس او احد الوزراء اثارتها دون ترتيب سابق ... وكان الرئيس عادة يسجل النقاط التي يريد اثارتها في « نوتة » او مفكرة من الحجم المتوسط حتى لا ينسى . ومن تعامل مع « الريس » يعرف تماما انه لا ينسى فقد كانت له ذاكرة حديدية تحفر فيها الموضوعات فلا تضيع ... وبالرغم من ذلك فانه كان يحتفظ دائما بهذه « النوتة » ليرجع اليها وقت ان يشاء .

وقد كانت الحالة التموينية تنال اهتمامه بشكل واضح ... رغيف الخبز ، الحلاوة الطحينية ، الزيت ، السكر ، الشاي ، الصابون ، اللحوم ، الجبن .... وفوق كل ذلك الاحوال السائدة في الجمعيات التعاونية. وكان لهذا الاهتمام المستمر تأثيره الواضح في الجماهير اذ انه رغما عن ظروف النكسة ورغما عن ارتفاع الاسعار العالمية وقلة المتيسر من العملة الحرة للاستيراد فانه لم يحدث في ذلك الوقت اي عجز في المواد التموينية الرئيسية بل امكن السيطرة تماما على الاسعار في السوق المحلية فاحترمت التسعيرة الجبرية وقلت حوادث التلاعب في الاسواق بعد ان سحبت

تراخيص بعض التجار « المتلاعبين » واقفلت بعض الحوانيت وقدم الاخرون للمحاكم لمواجهة الاحكام الرادعة .

ولقد كان توفر المواد التموينية بهذا الشكل الملحوظ موضع نقد في كثير من اللقاءات السياسية اذ كان البعض يرى ان الظروف التي تمر بها البلاد وهي تخوض حرب الاستنزاف تحتاج الى مزيد من التقشف بالاستغناء عن توفير بعض السلع . ونوقشت هذه الاتجاهات اكثر من مرة في مجلس الوزراء اذ كان بعض الزملاء يرون صحة هذه الاتجاهات التي كانت تلاقي تجاوبا من قطاع كبير من شعبنا الطيب الحمول الصبور الا ان « الريس » كان يقول « تقشف ايه يا جماعة ؟ هيه الناس لاقية الضروريات علشان ننادي بالتقشف !! » .

وفي احدى الجلسات دخل الرئيس قاعة المجلس ومعه « شنطة » متوسطة الحجم . وحينما بدات الجلسة اخذ يفرغ محتوياتها وفوجيء الوزراء بأن المحتويات كانت عددا من « ارغفة » الخبز البلدي مأخوذة من بعض المخابز في عدد من احياء القاهرة . . . شبرا ، روض الفرج ، الوايلي ، سيدنا الحسين ، الدرب الاحمر ، مصر القديمة ، مصر الجديدة . . . وأخذ يلوح بها لوزير التموين معربا عن عدم رضائه عن حالة « الرغيف » سواء من ناحية الحجم او اللون او

الشكل وكان يقول « مين يقدر منكم ياكل مثل هـــــذا الخبز ؟ هل هذا معقول ؟ » وطالب غاضبا بعلاج سريع للموقف وانتقال اجهزة الوزارة الى المخابز حتى يتـم اصلاح « الرغيف » . وقد كان .

وكان اكثر ما يغضبه رؤية طابور امام احـــدى الجمعيات التعاونية ــ على ندرة ما كان يحدث في ذلك الوقت ــ وهنا يثير الموضوع في اول اجتماع للمجلس في صراحة وجدية مطالبا بازالة الاسباب التي تدعو الى ذلك . ولعل الجميع ما زالوا يذكرون ندرة مثل هذه الطوابير امام الجمعيات المختلفة في ذلك الوقت .

في فترة من الفترات شحت « الحلاوة الطحينية » في الاسواق . وكان هذا الموضوع يؤرقه « فالراجل الفقير حياكل ايه ؟ رغيف وقطعة حلاوة ... فـــاذا عجز الحكم حتى عن تقديم ذلك فعلينا جميعـــــا ان نتخلى » . واستمر يضغط ولم يهدأ له بال حتى اصبحت « الحلاوة الطحينية » في متناول الجميع .

وكان الرجل شديد الحساسية بالنسبة لعجـــز يحدث في احدى المنتجات المحلية اذ كان من النادر في ذلك الوقت استيراد احتياجات الشعب من الخــــارج فكانت الاسواق لا تعــرف « البضائع المستوردة » الا عن طريق « التهريب » واصبح الانتاج المحلي يكفـــي ويزيد عن طاقة الاستهلاك . وابشع الظروف الصعبة

التي كانت تمر بها البلاد وقت الحرب حكمة السياسة التي كانت متبعة بخصوص القطاع العام والتحكم فـي الاستيراد وعلى ذلك فلم يكن الرجل ليقبل اي عذر او مبرر لعدم وجود سلعة من السلع في المحلات العامة . يخصص عددا من جلساتـــــه للاستعداد للمناسبة . فتبحث المواضيع المتعلقة بالكتب المدرسية وطاقـــة الطباعة في الدولة لتعبئتها حتى يكون الكتاب في يـد الطالب منذ اليوم الاول للدراسة وكذلك الحال مـع الكراسات والاقلام وغيرها من الادوات المدرسية . . . ثم توفير الملابس للطلبة من بلوفرات وجوارب وبنطلونات وبيجامات واحذية واقمشة المرايل . . . وكان يغضب حين يرى المسؤولين في المدارس المختلفة يغيـرون لبس الطلبة كل عام « ففي هذا عبء اضافـي علـى ميزانية الاسرة وميزانية الدولة علاوة على ان هـذه السياسة فيها عدم تقدير للمسؤولية وعدم وعي وتقدير للظروف السائدة » .. وفي نفس الوقت لم يكـن يتصور ان سعر « البلوفر » يصل الى جنيهين مثلا وكم سمعناه يقول « يعني لو واحد عنـــده خمسة اولاد يحتاج الى عشرة او عشرين جنيها لبند البلوفرات فقط عند افتتاح المدارس ويبقى عليه أن يدبر نقودا للاحذية والملابس الداخلية » . ثم يهدد وزير الصناعة في ذلك الوقت « برفع الحماية الجمركية عن الانتاج المحلي اذا

لم تبذل الجهود الصادقة لخفض اسعار التكلفة والا والله نستورد الملابس من الصين الشعبية » . ولم ينفذ « الرئيس » تهديده لان الامور عولجت في وقت معقول .

اما المواضيع المتعلقة « بالصحة العامة » فكانت تثار بين وقت واخر خاصة عند انتشار « بعض الامراض الصيفية » كالكوليرا مثلا . . . كانت التقارير اليومية ترفع له موضحة عدد الاصابات او الوفيات ومقدار توفر الامصال في المستشفيات او المخازن في كل انحاء الجمهورية وحوادث الاهمال التي قد تحدث هنا وهناك . ولذلك فان السيطرة على مثل هذه الامراض الطارئة كانت تتم في اقصر وقت . ويكفي للدلالة على ذلك تقارير الهيئات الدولية ثم اعتماد اغلب البلاد العربية وغيرها من البلاد الافريقية والاسيوية على انتاجنا المحلي من الامصال التي كان الرئيس يأمر بارسالها بالطائرات فور طلبها .

ويحضرني بهذه المناسبة قصة لها دلالتها . فقد وصل الى علم الرئيس ان اهمالا ما حدث في بعض المستشفيات وقت حدوث بعض اصابات الكوليرا ووجه اللوم والعتاب الى الدكتور عبده سلام وزير الصحة في ذلك الوقت . الا أن « عبده سلام » وفي ثقة تامة لا تخلو من الانفعال الواضح اخذ يوضح الموقف بأرقام واحصائيات لا تقبل الشك وكان الرجل

يتحدث في صدق وعلامات التعب بادية عليه من قلة ساعات النوم التي كان يفوز بها أو يختلسها . وما لبثت علامات الرضا ان ظهرت على وجه « الريس » وقال « طيب يا سيدي احنا متأسفين ومقدرين جهدك وجهد رجالك تمام التقدير » . وضحك ضحكته المشهورة . واخذ « عبده سلام » يتخلى عن انفعاله ويعود بسرعة الى طبيعته الهادئة بعد أن اطمأن ان الصورة الحقيقية اصبحت واضحة امام عبد الناصر .

وكان « الريس » يحث الوزراء دائما على ترك مكاتبهم للاتصال بالجماهير للوقوف على مطالبها واحتياجاتها واتجاهاتها فالوزير مسؤول سياسي قبل اي اعتبار اخر مسؤوليته ليست محصورة في نطاق وزارته فحسب بل تمتد الى المسؤولية الوزارية الشاملة بصفته عضوا في الحكومة التي يمثل سياستها ككل . وغفر الله لبعض الكتاب الذين تحدثوا عن هذه النقطة ووصفوا وزراء عبد الناصر بأوصاف غير لائقة وخلطوا بين « الوزير الحزبي » و « الوزير السياسي » فليس بالضرورة « للوزير الحزبي » أن يكون « وزيرا سياسيا » كما أن « الوزير السياسي » لا يتحتم ان يكون « وزيرا حزبيا » وعلى اي حال فهذا خارج عن موضوعنا الذي نحن بصدده وربما يكون لنا عودة له ان كانت الظروف ملائمة .

كان من الطبيعي والحالة هذه انتقال الوزراء الى

المحافظات لعقد الاجتماعات السياسية والوقوف على مطالب الجماهير لحل مشاكلها . وكان الوزراء يعرضون ما يلمسونه داخل المجلـــــس الا ان الزملاء تقدمـــوا بالشكوى لعبد الناصر في احدى الجلسات بانهم كثيرا ما يجدون انفسهم في حرج بالغ لعدم قدرتهم على حل بعض المشاكل البسيطة لعدم توفر الاعتمادات واذكر أن الرئيس قال « بقى ده معقول ؟ وزير قد الدنيا نازل المحافظة او المركز ولا يمكنه البت في اصلاح جامع او عمل قنطرة ؟ لازم وزير الخزانة يخصص اعتمادا لمثـــل هذه الامور » . وفعلا وفي نفـــــس الجلسة خصص الدكتور عبد العزيز حجازي وزير الخزانة مليوني جنيه تحت تصرف الوزراء للصرف منها لمواجهة المطالـــــب الجماهيرية العاجلة .

وقد أثمرت هـــــذه الطريقة واصبحت اللقاءات الجماهيرية مثمرة وبناءة وكان ذلك تطورا ثوريا فـــي مفاهيم الحكم اذ أصبح من المعتاد انتقال الوزراء الى الجماهير واجراء الحوار معهم ولم يكن ذلك مألوفا من قبل فاذا اضفنا الى ذلك تنفيذ « نظام الحكم المحلـــي » والتنازل له تدريجيا عـــــن بعض السلطات المركزية وانتشار وحدات الاتحاد الاشتراكي رغما عن بعـــض سلبياته لعرفنا أن الالتصاق الحقيقي بين الجماهيـــر والسلطة كان يسير في الاتجاه الصحيح .

وكان الحماس يغلب بعض الوزراء وهم يعرضون

آراءهم اثناء المناقشات فيقولون مثلا « يجب تحسين وسائل المواصلات ... او يجب محــو الامية ... او يجب العودة الى الشريعة » وكان ذلك يثير عبد الناصر ويضايقه فيرد قائلا « كل واحد عمال يقول يجب ... يجب ... يجب ، طيب ما انتم في المسؤولية ... لماذا لم تخططوا لذلك ؟ لماذا لم تنفذوه ؟ قبل ما نقول لازم ويجب علينا ان نفكر في كيف يتم هذا ؟ لاننا عارفين انه يجب ولكن يمكن مش عارفين كيف يتم ذلك ؟ ويجب ان تتذكروا شيئا مهما للغاية ... الجماهير ليست وحدة عسكرية يمكن لو الواحد في الوحدة العسكرية أمــر الجنود بالاتجاه الى اليمين مثلا فالكل يطيع الامر لكن لو اي فرد وقف في ميدان الاوبرا واحتشدت الجماهير هناك وامرهم بالاتجاه الى اليمين قد لا يطيعه احد او يمكن واحد يتجه لليمين وعشرة لليســــــار وعشرين للخلف » .

حدث في احدى الجلسات ان مجلس الوزراء كان منهمكا في بحث « الخطة السنوية للدولة » وكيفيـــة تدبير الاعباء المالية من العملة الصعبة او العملة المحلية واذا بالزميل عبد العزيز كامل وزير الاوقاف يلح فـــي طلب الكلمة . وكان من عادة « عبد العزيز » ان يفاجيء الجميع باثارة موضوع اخر بعيدا كل البعد عن الموضوع الذي يناقش كما كان معروفا عنه أنه كان دائما ما يعبر

عن آرائه بجمل مطاطة لا تلزمه براي معين . اعطـاه الرئيس الكلمة بعد أن لمس اصراره والحاحه واذا بـه يردد نفس ما يردده احيانا على شاشات التلفزيون أو في الصحافة عن « ضرورة العودة للدين ونشر الدعوة بين الشباب لتوعيتهم بأمور دينهـم وتاريخ السلف الصالح ..... » ورد عبد الناصر قائلا « أنا موافق يا عبد العزيز . ولكن كيف ؟ طيب يا اخي انـت وزير الاوقاف ولديك ميزانيتك الفنية الضخمة وتحت يـدك الجوامع والخطباء وكافة اجهزة الاعلام ، مـا الذي يمنعك من تنفيذ ما تقول ؟ هل تقدمت بخطتك لتنفيذ ذلك واعترضنا عليها ؟ هناك فارق كبير بين الحديـث عن شيء والعمل على تنفيذه » .

واسقط في يد « عبد العزيز » وتنبه الى الفارق الكبير بين مجرد « الحكي » وبيـن « المسؤولية » الوزارية ... بين « مجرد الكلام » وبين « المقدرة على التنفيذ » .

وزاد موقفه صعوبة حينما طالبه الرئيس بخطـة كاملة تناقش داخل مجلس الوزراء خلال اسبوعيـن للتصديق عليها .

وفات « عبد العزيز » أن الريس دون الموعد في « النوتة » الشهيرة .

وفي الوقت المحدد سأل الرئيس عن « الخطة الدينية » التي كثيرا ما تحدث عنها « عبد العزيز كامل »

واعتذر الرجل عن عدم اتمامها . ومن المؤكد انها لم تقدم للمجلس حتى وفاة عبد الناصر رحمه الله ولا اظن انه اتمها حتى الان !! فالكلام شيء والتنفيذ شيء اخر . والقاء محاضرته هنا او هناك شيء والقدرة على الخلق والبناء شيء اخر !!

وكان المجلس دائما ما يستعرض كلا من الموقفين الخارجي والعسكري ... فيلقي كل من وزيري الخارجية والحربية بيانا بالموقف وكان الكثيرون يشتركون بعد ذلك في الحوار والمناقشة . وفي حالة غياب محمود رياض وزير الخارجية في الخارج كان يستدعى نائبه لحضور مجلس الوزراء لاطلاعه على ما كان يجري . الا ان الموضوعات العسكرية الحساسة كخطط العمليات المقبلة او المشاكل التفصيلية للتسليح او التصنيع الحربي كانت تستعرض بشكل سريع . وفي اعتقادي ان هذا امر سليم . ولا اقول ذلك لانني كنت وزيرا للحربية لفترة قصيرة بعد النكسة ولكنني اقوله لانه امر معمول به في كافة الدول حيث تناقش مثل هذه الموضوعات في مجالس متخصصة كمجالس الحرب او مجالس الدفاع او في وزارة الحرب التي تشكل من عدد قليل من اعضاء مجلس الوزراء . حدث هذا ويحدث في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واسرائيل . ولذلك اسبابه ودواعيه فما الحيلة اذا كان للحوائط آذان كما يقولون ؟!!

ولا أريد أن استرسل اكثر من ذلك في « الموضوعات العامة » التي كانت تناقش في مجلس الوزراء في ذلك الوقت فهناك عشرات من الموضوعات التي يمكن أن تذكر واكتفي بما سبق على سبيل المثال .

ولكن قبل ان ننتقل الى موضوع اخر لا بد من وقفة .

فمن الغريب حقا ان كثيرا من اعضاء مجلس وزراء عبد الناصر تقاعسوا عن توضيح الاعمال الكبيرة التي اشتركوا فيها وتخاذلوا امام الحملات التي قام بها البعض ليشوهوا كل ما حدث . وهذا التقاعس والتخاذل امر لا يجوز .

ولكن الاكثر غرابة انني قرات لبعض الزملاء السابقين — واحمد الله انهم قلة — نقدا عن اسلوب المناقشات داخل المجلس ... وتناهى الى سمعي في نفس الوقت ما يردده البعض منهم عن مواقف « صلبة » و « عنتريات » لتلقين عبد الناصر درسا . وهذا امر مؤسف .

لانني أقرر هنا ان الفرصة كانت تتاح للجميع للمناقشة وللتعبير عن الراي . فلا يمكن لاحد ان ينكر ان باب المناقشة كان مفتوحا للجميع على مصراعيه فان تردد البعض في الدخول فيه لاسباب تتعلق بشخصه فالتبعة تقع عليه . لانني اتساءل : من من الزملاء طلب الكلمة ولم تعط له ؟ او اراد ان يتحدث في

موضوع وحرم من ذلك ؟ او فتح حوارا ومنع من الاستمرار فيه ؟

واقدام نفر قليل ممن عمل تحت رئاسة عبدالناصر لسنوات او شهور على التهجم عليه بعد ان مات يثير تساؤلا جادا عن سبب استمرارهم في العمل تحت رئاسة لا يرتاحون لاسلوبها ؟!! واقف عند حدود التساؤل لانني لا اريد ان اجازف باقحام الوفاء في الموضوع لانه شيء — كما يبدو — انتهى وضاع .

ولننتقل الان للحديث عن الموضوعات المدرجة في جدول اعمال مجلس الوزراء او « الرول » لنتحدث عن طبيعتها وطريقة عرضها على المجلس .

كان هناك العديد من اللجان الوزارية واجبها بحث كافة الموضوعات التي ستعرض على مجلس الوزراء بحثا مستفيضا قبل اتمام عرضها وكان يصدر قرار من رئيس الوزراء عقب اي تشكيل وزاري يحدد هذه اللجان واعضاءها وواجباتها ويراس اللجنة اقدم الوزراء وكان يضم الى عضويتها رؤساء بعض الاجهزة التي تتعلق اعمالها باختصاصات هذه اللجان وكان يمكن للجنة استدعاء من تراه من المتخصصين لبحث موضوع معين للاستنارة بارائهم . وكانت سكرتارية الحكومة تتولى اعمال السكرتارية الخاصة بهذه اللجان . وكانت كل لجنة تعقد اجتماعا او اكثر كل اسبوع في القاعة المخصصة لذلك بمبنى مجلس الوزراء .

وكان عدد اللجان ستة : لجنة الخطة التي تتولى بحث كافة الموضوعات المتعلقة بالخطة والميزانية ، اللجنة الاقتصادية وكانت تبحث كافة الموضوعات الاقتصادية ، لجنة اعداد الدولة للحرب ، لجنة التنظيم والادارة ومسؤوليتها بحث قوانين العاملين في الحكومة والقطاع العام ، لجنة الخدمات لدراسة الموضوعات الخاصة بالتعليم والثقافة والصحة ، اللجنة التشريعية لدراسة القوانين والتشريعات .

وكان يعرض على هذه اللجان الموضوعات التي تحول اليها من مجلس الوزراء او من الوزارات المختصة أو من الاجهزة الرئاسية وتعد لها دراسات متشعبة يتم دراستها داخل اللجان .

وحينما يصبح الموضوع جاهزا للعرض على مجلس الوزراء يوافق وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء على درجه في جدول اعمال المجلس ومن ثم يتم طباعته وتوزيعه على اعضاء مجلس الوزراء قبل عقد الجلسة المخصصة لدراسته بوقت كاف حتى يتسنى للوزراء دراسته وابداء رايهم فيه . وكان هذا النظام يحقق دراسة الموضوعات قبل البت فيها في مجلس الوزراء دراسة وافية لذا لم تكن مناقشة الموضوعات تستغرق وقتا طويلا للبت فيها اما بالرفض او الموافقة .

وكانت اللجان الوزارية بذلك مجالا اخر امـــام الوزراء واجهزتهم كذا المسؤولين الاخرين لابداء الراي في كافة الموضوعات .

وكان مجلس الوزراء بذلك مؤسسة تعمل بتنظيم دقيق وتعرض عليها كافة الموضوعات قبـل اصـدار قرار بخصوصها .

ومن ثم فليس من العدالة ان يقال انه لم تكن هناك خطط مدروسة او ان يردد بعض الحاقدين أن القرارات كانت عشوائية !! والا فبالله عليكم ما هو النظام الذي كان يمكن أن يسير عليه مجلس الوزراء خلاف ما حاولت ان اوجز شرحه ؟!

وبالرغم من هذه الدراسات كانت المناقشات تدور لوقت طويل في الامور المتعلقة بالخطة . وكان الرئيس يضيق ذرعا بالطريقة المعقدة التي كانت تعرض بهـا الخطة في اوراقها الكثيرة وجداولها المتعددة فكـان يطالب بتبسيط طريقة عرضها حتى يتمكن كافة الوزراء من مناقشتها لدرجة انه كان يطالب بارفاق موجـز يوضح على سبيل المثال :

كم فدان سيتم اصلاحه ؟ الزيادة المتوقعة من انتاج الحبوب او القطن ؟ كم دجاجة سيتم انتاجها ؟ عدد البيض المنتج ؟ الانتاج الحيواني ؟ الاسمـاك ؟ الحديد والصلب ؟ العربات والثلاجات والسخانات والغسالات ؟ الاطارات المنتجة؟ المدارس والمستشفيات؟

فرص العمالة التي تهيؤها الخطة ؟ زيادة الاجـــور ؟ العمالة التي يمتصها قطـــــاع الصناعة من قطـــــاع الزراعة .... الخ .

وكانت هناك مبادىء مقررة تحقق وحدة الفكـــر داخل المجلس :

● القروض والتسهيلات الائتمانية يتم انفاقها في المشروعات الانتاجية وليس في الخدمات .

● عدم الميل الى الانكماش والعمل على زيـــادة الانتاج ولم تقل الخطة الاستثمارية حتى فـــي ظروف النكسة عن ٣٠٠ مليون جنيه سنويا ورغما عن متطلبات اعداد الدولة للحرب .

● عدم السماح للبنك الدولي بفرض شروطـــه رغما عن المحاولات العديدة التي تمت في هذا الاتجـــاه كاصراره على تخفيض قيمة العملة المصرية او رفـــع الدعم أو الغاء قوانين المكاسب العمالية أو الاتجاه الى التركيز على الخدمات .

ولم يكن المجلس يلاقي اي صعوبة في تغطيـــــة احتياجات الخطة من العملة الصعبة فكانت التسهيلات الائتمانية تتوفر من الغرب والشرق على حد سواء وكم ساهمت الدول الغربية الى جانب الدول الشرقية في تنفيذ المشروعات المتعددة وانشاء المصانـــع المختلفة والدليل على ذلك انه بالرغم من ظروف النكســـة فان مشروعات عملاقة كان يتم بناؤها مثل : مشروع التوسع

في مصنع الحديد والصلب ومشروعات الدرفلة ، مشروع الالمنيوم ، مشروع صناعة العربات ، البدء في مشروعات مناجم ابو طرطور ، مشروع الترسانة البحرية في الاسكندرية وغيرها من المشروعات .

وكان من اخطر المشروعات التي ناقشها مجلس الوزراء برئاسة عبد الناصر نقل مصانع منطقة القناة جميعها الى داخل البلاد بعد ان اصبحت مهددة بنيران العدو القابع في الشرق وفعلا تم نقل المصانع جميعها تحت نيران العدو الموجهة من طيرانه ومدفعيته فتم نقل الحوض العائم لهيئة القناة ومصانعها مثل مصانع الاحبال واصلاح السفن ومصانع الالكترونات ثم تم نقل معمل التكرير الضخم الى مسطرد ومصانع السماد ... الخ . وكان الجهد الذي بذل في ذلك يعادل تماما الجهد الذي بذله الاتحاد السوفياتي في نقل مصانعه الى الاورال ايام الحرب العالمية الثانية بمراعاة الموارد والامكانيات المتيسرة هنا وهناك .

وبعد النكسة ظهرت بعض الاراء عن العمالة الزائدة والكف عن التزام الدولة بايجاد عمل للخريجين من الجامعات ورفض الرئيس ذلك قائلا « اي عائلة تنتظر انتهاء اولادها من التعليم حتى يجدوا عملا يدر عليهم دخلا . وكلنا مررنا بهذه الاوضاع . وعلينا الا نخيب امل العائلات بعد ان ذاقوا الامرين حتى يتخرج الاولاد والبنات » .

وارتفعت اصوات اخرى تهاجم مجانية التعليم تحت شعار او اخر وكان عبد الناصر يغضب من ذلك فبالرغم من عيوب طريقة التحاق الطلاب بالجامعات وفقا لمجموع الدرجات الحاصلين عليها فانه كان يجد ذلك محققا لمبدئي تكافؤ الفرص وكان يضرب مثلا بابنه التي لم يؤهلها مجموعها للالتحاق بالجامعة فاضطرت للالتحاق بالجامعة الاميركية .

وعلينا ان نتذكر ان هذا ما كان يواجهه عبد الناصر في مجلس الوزراء الى جانب المناقشات التي كان يحضرها في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي واللجنة المركزية واللجان العسكرية .

وامنع نفسي مجبرا من الاسترسال لضيق المجال.

ولكن كيف كان يتعامل عبد الناصر مع وزرائه ؟ سيكون هذا حديثنا في الفصل التالي باذن الله .

الفصـــل الثالث

كيف تعامل عبد الناصر مع وزرائه

فضيلة الاستماع بصبر ـــ مسؤول يدعى باقالة لم تحدث ـــ الترصيفة التي لا تصل الى حد الاعتذار ـــ وزير يبحث عن مسكن ـــ عبد الناصر يتراجع ـــ بلاغ كاذب الى الرئيس ـــ القرار بقانون رقم ٩٧ لسنـــة ١٩٦٩ ـــ ازمة في وزارة الحربية ـــ الوزير يفقـــد كرسيه ـــ عبد الناصر ظن ان الفئران بدأت تغـــادر المركب لانهم ظنوا انها تغرق .

كيف كان يتعامل « عبد الناصر » مع وزرائه ؟

كان من أهم خصال عبد الناصر قدرته علـــى « الاستماع » ... وهي ميزة ثمينة لرجل الحكم ورجل الدولة ... كان في امكانه أن يستمع لفترات طويلة دون ان يقاطع او يتدخل فاذا انتهى الوزير من الادلاء برأيه تبدأ المناقشة في هدوء في اغلب الاحيان . لانه أحيانا كان يخرج عن هذا الهدوء اذا كان مزاجه متوعكـــا ، او اذا كان المتحدث غير ملم بموضوعه ، او اذا كانـــت

هناك مزايدة لا تتواءم والامكانيات الموجودة او الظروف السائدة .

حدث مرة ان كلف وزير النقل بان يقدم للمجلـــس خطة لاصلاح مرفق السكك الحديدية اذ كانت هنـــاك شكاوى من أن حالة المرفق اصبحت تحتاج الى عنايـــة خاصة وطبعا رجع الوزير الى المختصين للدراســـة وتقدم بخطته في مذكرة لتعرض بصيغة عاجلـــة على المجلس وكانت التكاليف المقدرة لتنفيذ اصلاحات المرفق ٤٠٠ مليون جنيه . وبدأ الوزير في القاء بيانه ومبرراته وفجأة قاطعه عبد الناصر قائلا « انـــت طالب ٤٠٠ مليون جنيه لاصلاح المرفق . وانت تعلم الظروف التي تمر بها البلاد وهي تخوض حربا لتحرير الارض . لـــو كنت مكاني الان من اين تحصل على هذا المبلغ دفعـــة واحدة ؟ وحتى لو تيسر لنا ذلك هل لدى المرفق القدرة على انفاق هذا المبلغ في السنة الماليـــة الحالية ؟ » واضاف عبد الناصر قائلا « المسألة ليست التخلص من المسؤولية واثبات مواقف . يجب علينا ان نتقـــدم بطلبات معقولة تتناسب مع الامكانيات المتاحة . ولكن ما ألمسه في الطلبات المقدمة انها طلبات غير مسؤولة». وطلب من الوزير اعادة الدراسة على اساس الطلبات العاجلة والطلبات التي يريدها في المدى الطويل .

ويردد رئيس هيئة السكك الحديدية الان انه فقد منصبه لانه طالب باصلاح المرفق فـــي ذلك الوقت .

وهذا غير صحيح بالمرة . فرئيس الهيئة ظل في منصبه ولم يمسه احد وقد مضى على وفاة عبد الناصر عشر سنوات كاملة وما زال المرفق على حاله وربما تراجع كثيرا الى الوراء . واظن ان عشر سنوات تعتبر مدة كافية له لاصلاح ما كان يريد . خاصة وانه استمر اغلب هذه الفترة مسؤولا عن المرفق مسؤولية كاملة ومباشرة .

وكان « الريس » اذا شعر انه تجاوز الحد المعقول فانه كثيرا ما كان يصلح من الموقف بطريقة تحمل معنىً الترضية ولكنها لا تصل ابدا الى حد الاعتذار .

وكان يفضل الاتصال التليفوني او المذكرات المختصرة عن تكرار المقابلات الشخصية مع وزرائه لانه ربما كان يعتقد ان اجتماعاته المنتظمة مع وزرائه في مجلس الوزراء او في اللجنة المركزية تغني عن تعدد المقابلات الشخصية او ربما كان وقته لا يتسع لمثل هذه المقابلات نظرا لمشاغله العديدة ولكنه لم يتردد في مقابلة احد من وزرائه اذا طلب مقابلته .

وكانت مقابلاته تتم في الطابق السفلي بمنزله في منشية البكري في حجرة الصالون البسيط الذي كانت تتصدره صورة « أم تحنو على وليدها » وعلى رف المدفأة ترتص صور رؤساء بعض الدول المهداة اليه . . نكروما ، تيتو ، بندرانيكا ، سوكارنو ، نهرو . . . وفي

احيان قليلة كانت تتم المقابلة في « المكتب » على يسار الداخل .

وكان الرجل يحيط زائره بكل رعاية ... استقبال جيد ... جلسة تحوطها البساطة ... ثم لا بد من مشروب بارد واخر ساخن ... وتقديم سيجارة بحرص على اشعالها بنفسه للضيف . وبعد ان تنتهي المقابلة كان يحرص على توديع الزائر حتى الباب الخارجي ويظل واقفا حتى تتحرك عربة الزائر الى باب الخروج. فتنشر المقابلة في الصحف او لا تنشر حسب تعليمات « الريس » الشخصية .

ولم يكن من عادته ارتداء « البدلة الكاملة » في مقابلاته الا اذا كانت هناك مناسبة تقتضي ذلك اذ كان يفضل ارتداء القميص والبنطلون والصندل واما في الشتاء فيمكن ان يرتدي « بلوفر » من الصوف . ولم يكن في الوقت نفسه حريصا على ان يقابله « الوزير » في بدلته الكاملة .

كنت ارتدي « البوشرت » في احدى مقابلاتي معه وكانت المرة الاولى التي يراني فيها بهذا الزي وبعد ان صافحني قال ضاحكا « انت الان مثل نيريري » اذ كان الرئيس التانزاني يحرص على ارتداء « البوشرت » بصفة دائمة . وفي تلك المقابلة ايضا اشعل لي سيجارة قدمها لي وحينما قدم السيجارة الثانية اشعلتها مستخدما عود ثقاب فلم يكن معي

« ولاعة » فعلق قائلا « بقى يا أخي وزير وليس معـــك ولاعة » واهداني في الحال بواحدة ما زلت احتفظ بها في اعتزاز حتى الان .

وكان يجامل وزراءه في الملمات كوفاة احد الاقرباء او في المرض كذلك كان يجامل في المسرات واحيانا كان يحضر بنفسه للتعذية او للاطمئنان على الصحة او في الافراح ولكنه كان عزوفا بصفة قاطعة عن حضـــــور الدعوات الخاصة او المآدب او الزيارات وكانـــــت زياراته الخاصة مقتصرة على منزل او اثنين من منازل القريبين منه يذهب اليها لبضع ساعات في الليـــــل للترويح عن النفس .

ثم كان ــ في الوقت نفسه ــ يعاون فـــي حـــل مشاكلهم الخاصة اذا وصلت الى سمعه وربما استغل البعض عدم قدرته على رفض اي طلب خاصة اذا طلب في منزله استغلالا كان يحرج الرجل احيانا ولكنـــه لا يظهر ضيقه الا اذا فاض الكيل . ولكنه كان يبادر من نفسه لتقديم المعاونة في الحالات المعقولة .

فمثلا في حالة وفاة وزير او فقده لمنصبه الوزاري كان يمنح الوزير او العائلة معاشا استثنائيا ليحافـــظ على مركزه الاجتماعي من جانب ولعدم تورطه فـــــي اعمال غير لائقة من جانب اخر .

حدث أن « الدكتور حسن مصطفى » وزيـــــر

الاسكان في ذلك الوقت كان يعاني من عدم وجود مسكن خاص له إذ انه قبل استيزاره كان يعمل في الخارج واجر مسكنه الخاص لاحد اساتذة الجامعة فلما عاد « حسن مصطفى » ليتولى منصبه الوزاري حاول ان يقنع المستأجر باخلاء المنزل دون جدوى فسكن في « بدروم » المنزل اي في الطابق الاسفل وهذا وضع لا يليق . ولم يتمكن وهو وزير الاسكان من طرد المستأجر واستغل هذا الموقف واخذ يرسل بالشكاوى العديدة الى مختلف الجهات لقطع خط الرجعة على الوزير ان اراد ان يقدم على اي اجراء . ووصلت احدى الشكاوى الى « الريس » طبعا بصورة مشوهة . فاتصل بي غاضبا وطلب مني التحقيق . كان الاخ « حسن » وزيرا نزيها فاضلا عالما طيبا . وفي جلسة خاصة اتضح الموقف ووضعت الصورة « الحقيقية » امام « الريس » فأمر بأن يخصص له احدى الشقق من « الحراسة » علما بأنه كان قد اصدر تعليماته ببيع مثل هذه المنازل في « المزاد العام » .

وحدث نفس الشيء مع حافظ بدوي وزير الشؤون الاجتماعية في ذلك الوقت اذ كان يقطن في شارع الجيش في شقة رأى انها اصبحت لا تتناسب مع وضعه الاجتماعي الجديد وكان حافظ « يتردد » كثيرا في الاتصال بالرئيس لهذا السبب او غيره . الا أن الرئيس حينما علم بذلك امر بتخصيص منزل له رغما

عن الظروف السابق شرحها ورغما عن انه كان يقدم على هذه الحلول وهو كاره محرج . وبهذه المناسبة كان « حافظ » عضوا في لجنة تنظيم الاسرة وكان باسم الله عنده « دستة » من الاولاد وكان ذلك محل تندر دائم من « الريس » اذ كيف يمكن له أن يقنع غيره « بتنظيم اسرته » وعنده مثل هذا « الجيش العرمرم » .؟!!!

وكما سبق القول فان البعض كان يستغل مشاعر الرئيس في أمور محرجة فمثلا اراد احمد الوزراء ان يشتري بيتا من البيوت التابعة لاحدى الجهات الحكومية باسم زوجته وتقدم بمذكرة للرئيس اثناء احدى مقابلاته معه في منزله فأشر الرئيس عليها « أمين هويدي للتنفيذ » الا انني اعدت عرض المذكرة على « الريس » مؤكدا ان هذا التصرف فيه مخالفة صريحة لمواد الدستور وللعرف المتبع « رجاء اعادة التوجيه » . وفي اليوم التالي اتصل بي محمد احمد السكرتير الخاص « للريس » وقال لي « انت عملت ايه ؟ الريس هايج ويريدك أن تتصل به فورا على التليفون الخاص » . الا انني ذكرت لمحمد احمد ان الافضل الا اتصل بالرجل في حالة غضبه تلك وسأتصل به في المساء ورجوته ان يخبره بأنني لست موجودا وبأنه يحاول البحث عن مكاني . وحينما اتصلت « بالريس » في المساء تساءل عن مكان وجودي طول النهار . وعرفت أن عبد الناصر

على علم بتفاصيل ما تم بيني وبين الاخ محمد احمد فقلت له « انا كنت في مكتبي ولم اتصل بسيادتك لانني علمت انك غاضب ففضلت الاتصال بعد أن يزول غضبك » .
ويبدو ان هذا لم يكن كافيا للتخفيف من ثورة الرئيـــس وانفجر قائلا « يعني يا أمين انا اصبحت غير قادر على تنفيذ تأشيراتي . نفذ التأشيرة فورا » . وانهــــى المحادثة وهو في ثورة غضبه . وفي صباح اليوم التالي اتصل بي « الريس » وكان هادىء المزاج واخبرني وسط الحديث بأنه « يمكن تجاهل الموضوع وعدم تنفيــــذه واعمل ايه في الناس الذين يحرجوني » . وفعلا تــم الغاء الموضـوع . وهذه القصة تضاف الى حساب عبد الناصر لان موقفي فيها لا يتعدى القيام بالواجب بأمانة اما ان يتراجع عبد الناصر عن تأشيرته ففيه عودة الى الحق رغم موقفه المتصلب في اليوم السابق . . . وكثيرا ما فعل الرجل ذلك على عكس ما يقال .

ولا بأس من ذكر قصة اخرى لتعزيز ما اقول . . .

وصلته مذكرة كتابية من احــــد رؤساء تحرير المؤسســات الصحفية الكبرى كان يحرص على امداده بالمعلومات او الاخبار عن انحراف قام به احد اعضـــاء جهاز الرقابة الادارية واتصل بي الرئيس ــ وكنت في ذلك الوقت وزيرا للدولة ورئيسا للمخابرات العامة ــ وأمرني بالتحفظ على الموظف والتحقيق معه . وكـــان

« الريس » ثائرا . . . وارجعت ثورته الى ثقل الاتهام والى حساسية الجهة التي ينتمي اليها الموظف والى ثقة الرئيس الكبيرة في رئيس التحرير المذكور .

وضقت ذرعا بالمأمورية الثقيلة لانني منذ اشرفي على جهاز المخابرات العامة في ١٩٦٧/٨/٢٦ وحتى تركته في فبراير — شباط ١٩٧٠ لم استخدم سلطة الضبطية القضائية التي خولني اياها القانون ولو لمرة واحدة بل ولم اوافق على استخدامها بواسطة اي فرد من الجهاز وفي الوقت نفسه منعت قيام الجهاز بواجب التحقيق المخوّل له قانونا وكنت افضل احالة كافة القضايا الى النيابة العامة والى نيابة امن الدولة وبذلك اقتصر واجب الجهاز على جمع الادلة بوسائله الخاصة وتقديمها الى سلطات التحقيق لترى ما تراه .

ولم يكن امامي الا ان ابدأ التحقيق مع المذكور . ووضح لاول وهلة براءته الكاملة مما اسند اليه اذ كانت المستندات التي تحت يده تثبت ذلك بصفة قاطعة ولم اتردد في الاتصال بالرئيس على الفور ليلغي قرار التحفظ وقبل ان انتهي من عرض القضية تماما غضب الرئيس « فالموضوع يحتاج الى مزيد من التمحيص ثم يا اخي انا امرت بالتحفظ ولازم ينفذ هذا الكلام ثم لازم تبطل دماغك الناشفة دي » . وانهى الرجل المكالمة .

ومر بعض الوقت وانا اعاني من عوامل نفسيـة متباينة .

الا ان « الريس » عاد واتصل بي ولمسـت لاول وهلة أن هدوءه عاد اليه واخذ يطلب بعض التفاصيـل وعلى الفور أمر بالغاء التحفظ على المذكـور مـع استمرار التحقيق لمعرفة المتهم الحقيقي . وانتهـى التحقيق الى اتهام اثنين ببعض المخالفات الجسيمة وكانا شقيقين لعضوين من اعضاء اللجنة التنفيذية العليا الى جانب اخرين ... وعرض « الريس » الموضوع فـي احد اجتماعات اللجنة التنفيذية ووقع على الشقيقين الجزاء المناسب .

وكانت التعديلات الوزارية التي يجريها « عبـد الناصر » تتم في تكتم شديد لدرجة أن الكثيرين ممـن كانت تشملهم التعديلات لا يدرون بها الا من الصحـف او قبل اعلانها بوقت قصير وفي اغلب الاحيان لم يكن يعرف أسباب خروج الوزير من الوزارة ولا يفضـل الكثيرون هذه الطريقة في اجراء التعديلات التي تحدث في قمة السلطة الا انه لم يكن خصومة شخصية مع اي ممن تشملهم التعديلات الوزارية . فكان يمنـح البعض معاشات استثنائية اذا كانت ظروفهم المالية تستدعي ذلك ، ثم كان يعيد الوزير الى منصبه الوزاري بعد فترة قد تطول وقد تقصر ، او كان يوافق على أن يشغل اي عمل في الداخل او الخارج كرئيس هيئة من

الهيئات او كاستاذ في الجامعة او كسفير في وزارة الخارجية او في أي منصب في الهيئات الاجنبية اذ كان بعد ذلك مكسبا قوميا يجب ان نسعى اليه .

الا انه حدث بعد احد التعديلات الوزارية ان التحق وزيران بشركات اجنبية كانت لها اعمال تتعلق بوزارتيهما وكان التعيين بعد فترة قصيرة من اجراء التعديل الوزاري وغضب عبد الناصر واثار الموضوع في احاديثه « لانه من الواجب ابعاد اي شبهة عن المنصب الوزاري خاصة في تعامله مع الجهات والشركات الاجنبية حيث ان مثل هذه التعيينات قد تثير تساؤلات وشكوكا عن طبيعة العلاقات بين الوزير والشركات التي كانت تتعامل مع افرع وزارته وعلى اساس ان الموضوع لو ترك هكذا دون تنظيم فانه قد يفتح مجالات يحسن قفلها » . وأمر باصدار قرار ينظم عمل الوزراء بعد خروجهم من التشكيل الوزاري .

فصدر قرار رئيس الجمهورية بالقانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٦٩ بتنظيم العمل لدى جهات اجنبية بالنسبة لوظائف معينة ونصت المادة الاولى منه على انه « لا يجوز للوزراء ونواب الوزراء ومن في درجتهم ان يعملوا لدى الحكومات او المؤسسات الاجنبية باشكالها المختلفة او لدى الاجانب او ان يقوموا بأي عمل لحساب تلك الجهات خلال الخمس سنوات التالية لترك مناصبهم ولا يسري هذا الحظر على من يعملون لدى الهيئات

الدولية » . ثم نصت المادة الثانية على انه « يجـوز بقرار من رئيس الجمهورية اضافة وظائف اخرى يخضع شاغلوها بعد انتهاء عملهم بها لاحكام هذا القانون » .

وفي كل الحالات لم يمانع « الرئيس » في « اضافة وظائف اخرى » الى من طلب التصديق بذلك بشرط ان يحافظ على كرامة المنصب الذي شغله من قبل . وقد حدث مثلا أن وزيرا سابقا للسياحة طلب الموافقة لـــه على العمل باحدى الهيئات الدولية وووفق على طلبــه ولكنه ظهر انه نقل مجال عمله الخاص الـــى منطقــة الخليج علاوة على انه أساء اساءة بالغة في التعامـل الذي خرج عن حدود الامانة هناك . وعلم « الريس » بذلك فحدد اقامة الوزير السابق في منزله وامـــر بوضعه على قوائم الممنوعين مـــن السفر . وليس صحيحا ما كتبه الوزير من أنه اعتقل لانه قال « لا » لعبد الناصر . ولكن حددت اقامة هذا الوزير لانه لم يصدق حينما طلب الموافقة على عمله باحدى الهيئات الدولية ولم يكن هذا صحيحا . ولانه تعامل بطريقة تقرب مـــن الاحتيال مع دول عربية ولم يكن هذا جائزا .

وكان « الريس » ملما تمام الالمام بمـــا يدور . . كان قارئا ممتازا يطلع على احدث المؤلفات التي تصدر في الخارج فربما قرأ الكتاب كله وربما قرأ بعضا منــه وربما أمر بتلخيصه حتى يقرأ موجزا عنه . ولا يمكن لاي فرد ان ينكر سعة اطلاعه وثقافته الواسعة والمامـــه

بالمتغيرات الدولية والعوامل المتجددة التي تدور على الصعيدين الاقليمي والعالمي .

حدثت أزمة اثناء كنت وزيرا للحربية عقب النكسة ... كانت القيادة العامة للقوات المسلحة تعيش وتتنفس في نفس المناخ الذي عاشت فيه قبل النكسة ... فأراد عبد الناصر ان يقلم اظافرها بتعيين وزير مدني على رأسها يحاول ان يخضعها للمسؤوليات الوزارية والبرلمانية كغيرها من الوزارات ، ويحاول ان يرجعها الى حدودها بعد أن كانت تمددت وتورمت واصبحت تتداخل في امور كثيرة خارج اختصاصها ، ويحاول ان يخضعها الى الرقابة المالية للاجهزة المسؤولة عن ضبط حسابات الدولة ... ولم يكن هذا الامر سهلا بل سبب منذ الوهلة الاولى تصادمات وصراعات حتى والعدو جاثم على الضفة الشرقية للقناة ... وكنت اتناقش في احدى المرات مع « الريس » فيما يحدث وابتسم الرجل في تعب وسألني « هل قرأت كتاب رجال البنتاجون » ؟

Men of the Pentagon - from Forrestal to McNamara — By C. W. Borklad .

واسقط في يدي اذ لم اكن قرأته او سمعت عنه . ونصحني الرجل ان اقرأه . اقرأه !!! متى « يا ريس » اقرأ كتابا وانا لا اكاد اجد وقتا للنوم وانا أمر على المطارات في الهليكوبتر من الفجر حتى اخر ضوء ثم

على مواقعنا الدفاعية في القناة ثم قضايا التسليح والميزانية واعادة تنظيم القوات ثم عملي في المخابرات العامة ..!!! واحضرت الكتاب وقرأته من الغلاف الى الغلاف . وبعد اسبوعين سألني « الريس » عما اذا كنت قرأت كتاب «رجال البنتاجون» ؟ فأجبته بالايجاب . فتساءل عن رأيي واجبته « لقد قرأت يا سيدي الرئيس عن الصراعات المريرة التي خاضها وزراء الدفاع مع رجال المؤسسة العسكرية حتى تكون القوات العسكرية خاضعة لسياسة الدولة » . واعجبني روبرت ماكنمارا الذي كان يصر على ان يسير العسكريون في الخط والذي كان يصر على ان يقود جهازه وليس العكس ولضخامة مسؤوليته فانه قال لرئيس الولايات المتحدة انه ما كان في مقدوره أن يستمر في موقعه دقيقة واحدة دون التأييد الكامل للرئيس في معاركه الصعبة . وفهم الرجل ما أقصد ولكنه لم يرد ... فأضفت قائلا « ولو لم يحدث ذلك يا سيادة الرئيس لحدث له ما حدث لجيمس فورستال الذي افقده رجال البنتاجون عقله وانتهى به الامر أن يغافل الجميع وهو يعالج في المستشفى وينتحر » وبعد ذلك تردد عبد الناصر كثيرا في حسم المسؤوليات والسلطة داخل القيادة العامة للقوات المسلحة وهنا اخبرته بتوقفي عن ممارسة مسؤولياتي كوزير للحربية حتى يحسم الموقف . وبعد

اسابيع عديدة حسم الموقف بطريقته التي فضلها وتركت وزارة الحربية قبل ان افقد عقلي او اقدم على الانتحار !!!

وملحوظة سريعة ... رغما عن المحاولات العديدة التي حاولها « الريس » فقد صممت على موقفي ولم اتنازل عنه ورفضت تحمل مسؤولية غير واضحة المعالم ... ولكن الاهم من ذلك ان عبد الناصر لم يصبني بنازلة او صاعقة كما يحاول البعض ان يصوروه وهم يبررون مواقف باركوها في حياته وتنكروا لها بعد مماته !!!

وما دمنا نتحدث عن قراءاته فان « الريس » كان يقرأ كل الموضوعات التي كانت تصله ولذلك كان ملما الماما كاملا بما يدور ويحدث وكان من المستحسن لمن يعرض موضوعا من الموضوعات او يسأل عن موضوع الا يخوض فيه اذا لم يكن متمكنا منه مدركا لتفاصيله ملما بجوانبه لانه كان سيجد نفسه بعد فترة وقد تورط حتى ركبتيه . وكان يطالب الوزراء ان يكونوا ملمين بما يجري في وزاراتهم خاصة بعد ان رفع عن كاهل الوزير كل شيء يمس التنفيذ وتفرغ للتخطيط والمتابعة.

وقد حدث أن المرحوم احمد توفيق البكري وزير الصناعة لم يكن يدري ان بعض الاضطرابات العمالية قد حدثت في قطاع الصناعة في الصباح الا عند مناقشة الموضوع في مجلس الوزراء الذي تصادف وان عقد

احدى جلساته في مساء نفس اليوم . وبعد ان ادلى وزير الداخلية شعراوي جمعة ببيانه التفصيلي عن طبيعة الاضطرابات ومطالب العمال والاتجاهات السائدة بينهم جاء دور « البكري » وعاتب وزير الداخلية على عدم اخباره بالاحداث وقت وقوعها . وهنا تساءل « الريس » بصوته المنخفض « كيف ذلك ؟ كيف لا تكون قنوات الوزير مفتوحة على قطاعه ؟ كيف لا يشعر الوزير بكل ما يجري في قطاعه ؟ واذا كان الوزير لا يعرف بالاضطرابات التي تحدث في المصانع وبأسبابها حتى يعالجها فماذا يتبقى له ؟ كيف لم ينتقل الوزير الى المصانع ليواجه العمال سياسيا ويبدأ الحوار معهم ؟ » ولم يعط البكري اجابات مقنعة .

ورغما عن ان الرجل — رحمه الله — كان فاضلا امينا الا انه فقد منصبه الوزاري في نفس الليلة وعاد عزيز صدقي وزيرا للصناعة وبعد فترة وجيزة تولى « البكري » رئاسة مؤسسة الطيران ليواجه فيها متاعب جديدة نتيجة لوجود بعض الاضطرابات بين العاملين ولكنه كان يتتبع الامر بعينين مفتوحتين تراقبان كل ما يحدث .

وفي اول اجتماع لمجلس الوزراء حضره عبد الناصر بعد النكسة هبت العواصف في اكثر من اتجاه ... كان أول من تحدث حسين الشافعي وبدأ يتحدث عن الاخطاء والسلبيات التي ادت الى النكسة بصوته

الهادىء العميق ... اخذ ينقد « الانفرادية في اتخـاذ القرارات » ثم تناول موضوع « الحراسات » واخـذ يذكر الرئيس انه تحدث مرارا اليه بخصوصه . واستمع الرئيس في هدوء وصبر حتى انتهى من حديثه .

وبدأ الرجل في الحديث وتساءل : لماذا لم يدلي حسين الشافعي بمثل هذه الاراء من قبل ؟ لماذا لـم ينتقد اسلوب الحكم الا بعد الهزيمة ؟ لماذا يختار هذا الوقت بالذات ؟ ثم ضحك بمرارة وهو يردد المثل الشائع « لما العجل يقع تكثر سكاكينه » واخذ يعدد امـام المجلس القرارات الهامة التي اخذت قبل النكسـة راهمها سحب القوات الدولية وغلق خليج العقبة أمام السفن الاسرائيلية واكد انها تمت بموافقة الجميع . وقد أمن على حديثه السيدان زكريا محي الدين وانور السادات وكانا يحضران الجلسة . واخذ الرجل يعـدد الموضوعات والسيدان زكريا والسادات يؤمنان على ما يقول « الريس » . ثم عاد لينفي ان الشافعي اعترض على الحراسات ولكنه كان يفاتحه في رفع الحراسة عن بعض اقربائه ممن طبق عليهم قانون تصفية الاقطـاع واكد انه لم يستجب نرجائه حتى لا تكون هنـاك استثناءات في تنفيذ القانون . ثم عـاد « الريس » ليتساءل : اذا كان اسلوب الحكم ليس محل رضائـك لماذا لم تتدم استقالتك كما فعل البغدادي وكمـال حسين وحسن ابراهيم [illegible] في حكم لا ترضى عن

اتجاهاته ؟ لماذا يظل في المسؤولية في ظل قوانيـــــن تتعارض مع معتقداته ؟

ورد الشافعي « الاستقالة ابسط شيء لا تكلف الانسان الا قصاصة من ورق » . ورد الريس « لماذا لا تقدم هذه القصاصة ؟ » .

وتوقف الرجلان عند هذا الحد . . . ولا ادري ماذا تم في الكواليس بعد ذلك .

ولكن الشافعي لم يقدم استقالته كما ان عبـــد الناصر لم يقدم على اقالته حتى يوم وفاته .

وتحدث بعض الوزراء لينقدوا قرارات شاركوا فيها ووقعوا عليها وايدوها بل طالما القوا الخطب في الاجتماعات الجماهيرية ليمتدحوها ويبيعوها للجماهير. وهنا تساءل عبد الناصر والمرارة تكسو وجهه : « كل ما يحزنني هو انكم تنقدونالان ما سبق لكم ان ايدتموه». وقد لا اكون مخطئا ان تلك الجلسة كانت نواة لما عرف بعد ذلك ببيان ٣٠ مارس .

ورايت عبد الناصر في تلك الليلة وهو يغـــادر قاعة الاجتماع وقد زاد انحناء ظهره وكأنه اصبح شيخا في الثمانين .

كانت صدمة النكسة قد هزت كيانه ، ثم زاد من همومه « الردة » المحدودة التي حسبها نفرانا تغـــادر المركب الغارقة .

وبعد فترة قصيرة استعاد نفسه وبدا يحاول ان يوجه الاحداث .

الفصل الرابع

فات عبد الناصر ان يحيي جهد وزيره — ازمة حلمي مراد — الوزير الزئبقي — هز الحكم بين وقت واخر — لا توجد ادارة اشتراكية أو ادارة راسمالية ولكن توجد ادارة ناجحة — عبد الناصر لم تعجبه لحية الوزير .

في الفصل السابق كنا نتحدث عن بعض الازمات التي كانت تحدث في مجلس الوزراء أيام عبد الناصر ولا بأس من تعداد مواقف أخرى اتسمت بالحدة .

عقب صدور قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بعد نكسة ١٩٦٧ عاد محمود رياض وزير الخارجية الى القاهرة راسا بعد ان طالت غيبته في الولايات المتحدة الامريكية يحاول الحصول على افضل قرار سياسي يمكن الحصول عليه ونحن في موقفنا العسكري الذي كنا عليه في ذلك الوقت .

ومن المعروف ان الولايات المتحدة حالت دون صدور قرار عادل من المجلس فلاول مرة في تاريخ مجلس الامن يصدر قرار لا ينص فيه على انسحاب القوات الى المواقع التي كانت فيها القوات قبل حدوث التصادم . ومن المعروف أيضا أنه من الناحية الواقعية البحتة فان

اي قرار سياسي هو ترجمة حقيقية لما يحدث في مسرح العمليات بحيث لو وضع القرار السياسي في كفة ميزان والموقف العسكري في الكفة الاخرى ما رجحت احدى الكفتين عن الاخرى بأي حال من الاحوال . فهذه قاعدة هامة من قواعد ادارة الصراع الدولي .

ووقت أن هبطت الطائرة علم محمود رياض أن مجلس الوزراء يعقد جلسته العادية فاتجه من فـوره من المطار راسا الى قاعة الاجتماع في قصر القبـة . ورحب عبد الناصر برياض وهنأه بسلامة الوصول ثـم اضاف مبتسما « هل هذا هو كل ما امكنك الحصول عليه يا رياض . ؟! »

ورغما عن أن « رياض » لا يحتد الا في القليل النادر الا انني احسست — وقد كان مكاني الى جواره فـي المجلس — أن الرجل يبذل مجهودا خارقا ليسيطر على انفعالاته ، وهو يقول « القرار ده لن ينفذ بواسطـة اسرائيل الا اذا أجبرناها عسكريا على ذلك . تنفيـذ هذا القرار يتوقف اولا واخيرا على جهدنا الذاتي ونمـو ارادتنا » كان « رياض » يتحدث بصوت متهدج لانه ظن ان « الريس » يقلل من قيمة الجهد الذي بذله في مجلس الامن أمام عدو حصل على انتصار لم يكن يحلم بـه وحليف كبير يؤيده تأييداً لا حد له .

ولم يكن « الريس » يقصد ذلك على الاطلاق لانه كان يقدر الموقف بطريقة واقعية ولذلك فانه قال « فانني

ان احيي الجهد الذي بذله رياض وهو في موقفه الصعب هناك في نيويورك . وأنا اوافقه تماما على ما قال لانه لا يوجد شيء يدعو اسرائيل الى الانسحاب . »

وارتسمت علامات الرضا مرة أخرى على وجـــه رياض .

ولننتقل من هذا الموقف « الحاد » لنتحدث عن ازمة خلقها وصنعها « حلمي مراد » وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت .

وقبل ان انطق بحرف واحد اريد أن اقرر ان حلمي كان يبادلني الاحترام والتقدير ... فكنت اقدر فيـــه صراحته وانفتاحه على اجهزة الاعلام حتى ولو رأى البعض انها كانت تزيد عن الحد الواجب ... وكـــان بدوره يقدر في شخصي ــ كما كان يقول دائما ــ انني أستخدم في بعض تنقلاتي الاوتوبيس والمترو حتى وأنا اشغل منصبي الوزاري علاوة على أمانتي واستقامتي . وحتى الان فانني لا انسى تقديري له ولا اظن انه نسي بدوره .

ونعود ثانية الى الازمة التي خلقها حلمي مراد .

في أحد اجتماعات مجلس الوزراء كلف « الريس » الدكتور حلمي برئاسة لجنة لاقتراح خطة لتنفيذ مـــا جاء في بيان ٣٠ مارس من مبادىء وخطوط عامة وكـــان عضو اللجنة هو الدكتور عبد العزيز حجازي وزيـــر الخزانة وكان على اللجنة ــ بموجب هذا التكليــف ــ

الاتصال بالوزارات والجهات المختلفة للوقوف على آرائها في التعديلات المقترحة .

وبنشاطه المعهود انهى حلمي مراد اعماله ووزع خطته على الوزراء لدراستها تمهيدا لمناقشتها في المجلس. وقد ظهر عند اجراء المناقشة ان حلمي مراد انفرد باقتراح الخطة المقدمة فلا هو اخذ راي اللجنة ولا هو اتصل بالوزراء او الجهات الاخرى للوقوف على الاراء المختلفة وقد اثار ذلك مناقشات حادة واعتراض الوزراء على ما ورد في التقرير المقدم لانه على حد اعتراضهم يحوي آراء شخصية لا تتصل بالواقع . وواجه حلمي الاعتراضات بابتسامته الحائرة مشيدا بالروح الحرة التي تسود مناقشات المجلس . وتدخل « الريس » لينقذ حلمي فشكر له جهده ورجا أن تعيد اللجنة النظر في الاقتراحات المقدمة على ان يكون عملها جماعيا وعلى ان تتصل بكافة الجهات والقطاعات للوقوف على آرائها على ان يعاد مناقشة الموضوع مرة اخرى داخل المجلس.

الا ان حلمي مراد راى أن ينشر تقريره الذي سبق ان قدمه للمجلس في مجلة «روز اليوسف» قبل اعادة دراسته كتكليف مجلس الوزراء له لان حلمي كان لديه ميل غريزي للنشر في الصحافة وحاول الزميل محمد فايق وزير الارشاد في ذلك الوقت اقناعه بأن من الاوفق عدم النشر طالما لا يزال الموضوع محل بحث مجلس

الوزراء الا ان حلمي مراد اصر على النشر . وتم لــه ما اراد .

وفي أول اجتماع لمجلس الوزراء افتتح «الريس» الجلسة باثارة موضوع نشر التقرير في مجلــة « روز اليوسف » واعترض الرئيس على النشر لعدة اسباب :

● فنشر التقرير على انه تقرير « لجنة وزارية » لا يطابق الواقع اذ ان التقرير كان يعبر عن راي رئيس اللجنة دون الرجوع الى الاعضاء الاخرين .

● ثم مازال الموضوع معروضا على مجلس الوزراء لم يتم البت فيه بل كلف رئيس اللجنة باعادة بحثه الامر الذي لم يتم حتى نشر التقرير في المجلة وما كان يصح ذلك لانه لم تجر العادة على نشر موضوعات ما زالت محل مناقشة المجلس الا اذا رؤي فتــح المجــال على مصراعيه للوقوف على اتجاهات الراي العام .

● ثم كون التقرير يحتوي على نقد ثقيل لاغلــب الوزارات والوزراء فسوف يصبح من حق هؤلاء الرد على ما اثاره التقرير ويبدو الوزراء امام الراي العــام منقسمين على انفسهم ويصبح رئيس الوزراء «طرطورا» امام الجميع وهو يرى وزراءه في معارك صحفية مــــع بعضهم البعض .

واختتم « الريس » حديثه بأن العمل الذي قام به الدكتور حلمي عمل جانبه الصواب سواء من ناحيــة الشكل أو الموضوع .

وقد حاول حلمي ان يوضح وجهة نظره بطريقة لم تقنع « الريس » ولم تقنع زملاءه في نفس الوقت وحاول الاعتذار الا ان الرئيس اكد له في صوت قاطع ان الاسلوب الذي اتبع يعيد الى الاذهان المناورات الحزبية القديمة الامر الذي يتعذر معه استمرار التعاون « بيني وبين الاخ حلمي مراد . » . . . وفجأة ترك الرئيس الجلسة غاضبا .

ووجد الدكتور حلمي مراد نفسه في وضع لا يحسد عليه . . . ترك اوراقه على المائدة دون أن يكترث بجمعها وهرع خلف « الرئيس » محاولا اللحاق به للاعتذار وكان « الريس » في عربته يحادث الاخ محمد فوزي وزير الحربية وكان الدكتور حلمي ينتظر دوره الا انه بعد انتهاء « الريس » من حديثه مع وزير الحربية أمر عربته بالتحرك . ووجد الاخ حلمي نفسه مرة أخرى في وضع لا يحسد عليه .

الا انه لم ييأس واستقل عربته مسرعا ليلحق « بالريس » في داره بمنشية البكري » والح في مقابلته لتقديم اعتذاره الا ان الرئيس راى الا يقابله في تلك الليلة . ووجد الاخ حلمي نفسه مرة ثالثة في وضع لا يحسد عليه .

وحاول عدة محاولات في اليوم التالي دون جدوى وظل على محاولاته تلك الى أن أعفي من منصبه وخلفه حافظ غانم وبعد فترة وجيزة وافق الرئيس على اعادة

حلمي الى الجامعة ليشرف على بعض الدراسـات العليـا .

سمعت الكثير عن هذه الازمة مما يحتاج الـى تعليق . . .

● سمعت ان حلمي مراد هو الذي استقال وهذا غير صحيح اذ ان حلمي اعفي من منصبه بل حـاول جاهدا أن يتلافى ذلك الا انه فشل في كافة محاولاته .

● وسمعت ان الرئيس غضب عليه لانه الوحيد الذي كان يقول « لا » في المجلس ولم يكن هذا صحيحا . بل يكذب ذلك تكذيبا قاطعا قصة تعيينه في الوزارة . . . اذ ان حلمي مراد وقت ان كان وكيلا لجامعة القاهـرة اعترض على اسلوب وزير التعليم العالي في ذلك الوقت المرحوم عزت سلامة في معالجته لموضوع « تطويـر الجامعات » وكان الرأي العام السائد أن الوزير تخطى راي الجامعات واعتدى على استقلالها . وابلغني حلمي برأيه هذا بصفتي وزيرا للدولة فنقلت وجهة نظـره تلك الى السيد صدقي سليمان رئيس الوزراء في ذلـك الوقت والى « الريس » وكانت وجهة نظر حلمي مـراد محل اعتبار عند نظر القضية . واثر هذا الموقف الشجاع رشحت حلمي — ولعله لا يعرف حتى الان — مديـرا لجامعة الازهر اذ كنت في الوقت نفسه وزيرا للدولـة لشؤون الازهر ووافق الرئيس . . وقبل اتمام المناقشة مع « الريس » قال « ولماذا لا يتولى وزارة التربيـة

والتعليم ؟ احنا عاوزين ناس لهم مواقف . » اذن فسر اختياره وزيرا موقفه الشجاع أيام قضية « تطويـــــر الجامعة » ولا يعقل ان تكون شجاعته وراء فقدانــــــه لمنصبه الوزاري .

● وسمعت أن سبب غضب الرئيس عليه هـــو انه كان له رايه الخاص فيما سمي بعد ذلك « بمذبحة القضاء » . وللتاريخ فان ما تم في القضاء في ذلـــــك الوقت كان بموافقة اللجنة التنفيذية العليا وموافقـــة مجلس الوزراء وبعض رؤساء تحريـــــر « السلطة الرابعة » وهي الصحافة بل وبعلم « مجلس الشعب » وكان الدكتور حلمي فعلا يريد معالجة الموضوع ككثيرين غيره عن طريق الحوار الا ان لغطا كثيرا اثير في ذلــــك الوقت عن ان بعض مناقشات المجلس كانت تتسرب عن طريقه .

● وسمعت أن القرار الصادر بمنع الوزراء من العمل لدى الحكومات او المؤسسات الاجنبية خــلال الخمس السنوات التالية لترك مناصبهـــــم والسابق التحدث عنه في مقالنا السابق قد صدر خصيصا لمنع الدكتور حلمي من العمل . وقد سبق ان شرحنا فـــي الفصل السابق ظروف صدور القرار اذ صدر بمناسبة تعيين وزيرين في شركتين اجنبيتين تزاولان نشاطهما في القطاعين الذين كان يشرف عليهما الوزيران وذلــك بعد خروجهما من الوزارة بمدة قصيرة ولم يكن الامر

يتعلق بالدكتور حلمي من قريب او بعيد فعبد الناصر لم يكن في حاجة الى اصدار قانون بدافع شخصي اذ كان يكفيه الا يوافق على تعيين « حلمي » او خلافه فينتهي الامر . ثم لم يكن من عادة عبد الناصر تطويع القانون لارادته الشخصية ، ولم يكن من عادته التدخل في اعمال القضاء اذ كانت له فلسفته الخاصة في مثل هذه الامور . ولم يكن « حلمي مراد » في يوم من الايام من الخطورة السياسية حتى يصدر قانون خاص لتطويق نشاطه الذي يهدد الحكم . ثم اهم من كل ذلك فان الرجل قد اعفي من منصبه في ١٠ ايلول — تموز ١٩٦٩ وصدر القانون المشار اليه في ١٩ ديسمبر — كانون اول ١٩٦٩ اي بعد الاعفاء باكثر من خمسة شهور كاملة . وهذا الفاصل الزمني الكبير بين قرار الاعفاء وصدور القانون دليل قاطع على عدم علاقة صدوره بأي شخص من الاشخاص وعلى الاخص حلمي مراد . كان القانون اجراء تنظيميا اصدره الحكم لتحقيق نزاهة افراده ومنعا لشبهات لا داعي لها .

ولكن هناك كلمة حق لا بد وان تقال . فانني لم اسمع او اقرأ ان الدكتور حلمي مراد ردد ما سبق بنفسه ولسانه بل قرأت ذلك مرارا في بعض الصحف ذات الاتجاهات المعروفة لتغذية الحملة المسعورة ضد عبد الناصر . لانني اعتقد ان الزميل حلمي مراد لا يمكن ان يتقول بما لم يحدث .

وكان اختيار الافراد مهمه شاقه وصعبه وهي فعلا كذلك يشعر بصعوبتها كل من مارس الحكم فكل الافراد لهم مزايا محددة ، وكل الافراد يتحدثون عن المبادىء والمثل ، واغلبهم ينافق ويتقرب من مراكز السلطة ولو على جثث المبادىء والاصدقاء . والفيصل الحقيقي للاختيار هو الممارسة الفعلية . ويظهر المعدن الاصيل عندما يمارس السلطة او يؤتمن على المال العام . فالبعض يستغل السلطة للصالح الشخصي وهو ما زال يرفع عقيرته مناديا بالشعارات والمبادىء ، والبعض يسيء استغلال المال العام وهو ما زال يتحدث عن النزاهة والامانة .

والكفاءة العلمية ليست بالضرورة هي الفيصل . فالمراكز الحساسة شيء اكثر من التخصص في موضوع معين لان ادارة الدولة خلاف العمل في مراكز الدراسات ومعامل البحوث وقد سئل روبرت مكنمارا عن سبب الفجوة التكنولوجية بين اوروبا والولايات المتحدة الاميركية فذكر دون تردد انها « فجوة ادارية فالادارة هي التي تحول الافكار الخلاقة الى واقع ملموس » وقد أفاض مكنمارا من ذلك في كتابه « جوهر الامن » .

وكانت الترشيحات تتم عادة بواسطة الوزراء والجهات الرئاسية الاخرى وكان من المعتاد ان تتم عملية جمع المعلومات عن المرشحين بواسطة الاجهزة

المختلفة وهو اجراء متبع في كافة الدول المتحضرة وهو أمر لا يتعلق بالولاء انما يتعلق بالامـــن بوجه خاص وتعتبر الدول المتحضرة ان هذا الاجراء اجراء مساعد في عمليات الاختيار . بل لا ينبغي ابدا ان تقتصر عمليــة المتابعة في فترات الترشيح بل لا بد وان تستمر فـــي فترات الممارسة وهو أمر لا يتعلق بالحرية الشخصيـــة التي لا بد وان تمارس في حدود مصلحة الدولـــة وامنها .

وكان كثير من الوزراء يمارسون حقوقهم فـــــي الاختيار وتساعدهم جهات الامن في تأكيد حســـــن اختيارهم او الثغرات الواضحة في هذا الاختيار وكان الريس غالبا ما يوافق على ترشيحات الوزراء . ولكن كان وزراء آخرون لا يمكنهم ممارسة حقهم الا بالتردد على مكاتب خاصة اعتقدوا انها مركز السلطة الحقيقية . وهم لا يدرون انهم بذلك خلقوا دوائر نفوذ لا يجـــــوز وجودها . . .

ولقد هاجم هذا الاجراء ــ اجراءات الترشيحات وجمع المعلومات عن المرشحين ــ الدكتور عبد الوهاب البرلسي وزير التعليم العالي على صفحات المجلات ايام انتشرت موجة مهاجمة « عبد الناصر » وظن الرجـــل الطيب انه لا بد وان يركب احدى الموجات لعلها تلقي به حيث كان في يوم من الايام او على الاقل قريبا مما كان . واختلق ازمات لم تحدث ولبس ثياب المدافع عن كرامة

رجال الجامعات ضد الاجهزة التي « تتجسس » عليهم.
ولم يكن هناك شيء من ذلك على الاطلاق . ولكن ربما يكون الرجل الطيب لا يعرف الاجراءات الواجبة وربما يكون الرجل قد تصور أن تردده على بعض المكاتب واخذ موافقة بعض الاشخاص كان بمثابة التصديق النهائي على ما يريد أو على ما يريد غيره له وهو لا يعلم ايضا ان هذه الاجراءات القانونية كانت تساعده على الاحتفاظ بحريته في انتقاء مساعديه بدلا من ان يتم الاختيار عن طريق غيره ولقطع خط الرجعة على هؤلاء الذين ارتضى ان يحركوه فلا يلقبونه الا « بالرجل الزئبقي » . والذين اسفوا لموقفه من عهد شارك فيه !!!

ومسائل التعيينات تلك لم تكن تناقش في مجلس الوزراء ولهذا مغزاه فالمسؤولية ملقاة على عاتق الوزير وهو الذي يختار معاونيه وبعد ذلك يكون مسؤولا عن عمله الجماعي وانتاجه الجماعي أمام مجلس الوزراء . والوزير الذي يقبل ان يفرض عليه احد معاونيه دون اقتناع منه بقدرته وامكانية التعاون معه مقصر في حق نفسه ومقصر ايضا في حق مسؤوليته . كما ان الوزير الذي لا يقبل النصح في اختيار معاونيه وتشبث بهم ظالمين ومظلومين مقصر ايضا في حق نفسه وفي حق مسؤوليته .

وكان من عادة عبد الناصر ان يهز الحكم بين وقت

وآخر باجراء حركات تعيينات وتنقلات في اجهزة الانتاج والخدمات على حد سواء . كان لا يميل كثيرا الــى ان « يستقر » فرد في مكانه لفترة طويلة . وكان هدفه من وراء ذلك ادخال الدم الجديد الى شرايين اجهزة الدولة من جانب والى القضاء على « الشللية » و « التحزب » من جانب آخر . وكان الوزراء عادة ما يقومون بهــذه التغييرات . وكانت هذه الطريقة لها حسناتها ومعايبها كأي طريقة من طرق وأسلوب ممارسة الحكم .

وكان عبد الناصر غير « مزمت » ولا يميل ابدا الى التطرف . فالتطرف شيء والثورية شيء آخــر . كان عبد الناصر ثائرا ولكنه لم يكن متطرفا ولا متزمتا . فبالرغم من أنه كان اشتراكيا بطبعه الا انه كان يفسر اشتراكيته في بساطة ويسر « فرجل الشارع لن يهتــم بنا لو نادينا بالاشتراكية ليل نهار . . . سيتركنا ننادي بالاشتراكية فاذا نظرنا الى الخلف سنجد ان الشعب قد انصرف الى همومه واننا نسير وحدنا خلف شعاراتنا . . . الاشتراكية بالنسبة للاسرة عبارة عن اكــــل ضروري ومسكن لائق وأن الرجل يجد عملا له ولاولاده ثم يكون قادرا على تزويج بناته » . ثم في اثناء تقييــم الخطة او اعمال القطاعات المختلفة يبدأ في مناقشــة ايجابيات الادارة وسلبياتها ويرد على ان الاشتراكية لا ينفذها الا اشتراكيون « لا يوجــــد هنــاك ادارة

اشتراكية او ادارة راسمالية ولكن يوجد ادارة ناجحة » . ثم يقول « وما هو تقييمنا للادارة الناجحة ؟ ان التقييم اساسه الانتاج وعلى ذلك لا بد وان يكون لرئيس مجلس الادارة الحرية الكاملة لتحقيق الاهداف المطلوبة . فاذا تعارضت آراء اللجان النقابية او لجان الاتحاد الاشتراكي مع اراء الادارة فان الادارة هي التي تنفذ ما تراه . اذ لا يمكن ان تعطى مسؤولية الا بما يوازيها تماما من سلطة والا اختلت الامور». ولذلك فانه حينما أمم شركات المقاولات ترك اصحابها القدامى على رأسها يديرون ويبنون وكانت هناك في ذلك الوقت افكار تنادي بالتغيير الشامل للادارة الا انه وقف حائلا دون ذلك لاننا « ننفذ سياسة ولا نعزل افرادا بعينهم فمن يثبت منهم صلاحيته يستمر ومن يثبت فشله يذهب ويغير » . وقد استمر اغلب رؤساء هذا القطاع في اماكنهم حتى مات وزادت امكانيات شركاتهم حينما عملت في اطار القطاع العام وتحسنت الاوضاع المالية لكثير من الشركات اذ كان اغلبها غارقا في الديون وتمكنت مصر بقطاعها العام للمقاولات من بناء السد العالي ومئات المصانع والمدارس والمستشفيات وآلاف الوحدات السكنية الاقتصادية التي كانت تؤجر للشعب بأسعار رمزية كما تمكنت مصر من شق الترع والمصارف والطرق بل خاض هذا القطاع معارك حقيقية تحت نيران العدو وهو يشارك في بناء المواقع الدفاعية

وانشاء المطارات والملاجىء الخاصة بها ونقل حوائط الصواريخ الى الامام واخلاء المصانع وفكها من منطقة القناة المهددة واعادة بنائها وتركيبها في الخلف والى جانب ذلك مد هذا القطاع نشاطه في البلاد الافريقية والعربية دون قيد على نشاطه .

وثبتت اقوال عبد الناصر من انه « لا توجد ادارة اشتراكية او ادارة راسمالية ولكن توجد ادارة ناجحة» .

وبالرغم من هذه المشاركة الفريدة لم ينس البعض لعبد الناصر اقدامه على تاميم ما كان يملك وانطلق هذا البعض لينضم الى صفوف « الردة » بعد ان كانوا لا يكفون عن المدح والثناء !!!

وما دمنا في صدد الحديث عن عدم ميل عبد الناصر الى التطرف فلا باس من سرد القصة الطريفة التالية :

اطلق احد الوزراء — قبيل وفاة عبد الناصر — لحيته . ولا يمكن لاحد ان يعترض على هذا الاجراء الشخصي « فواحد حامل ذقنه والثاني زعلان ليه » ؟!! ولكن كان هذا الوزير علاوة على ذلك قد وقع تحت تأثيرات معينة جعلته يأتي بأفعال فيها غرابة !!! فمثلا كان من يجلس الى جواره يسمعه احيانا يردد بينه وبين نفسه وهو يبتسم « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . ويلتفت الذي يسمع يمينا ويسارا وخلفا باحثا عن القادم الجديد فلا يجد احدا . فيسأل الوزير على من « ترد

السلام والتحية » ؟! فيجيب الرجل في ثقة وهو يمسك بذقنه « على سيدنا الخضر عليه السلام فقد مر أمامي الان واقرأني السلام فرددت عليه » ولا يمكن لاحد ان يقطع بصدق ذلك او ينفيه الا انه يبدو أن « الريس » لم يصدق ان هذا يمكن أن يحـــدث . . . وقد يحدث والمناقشات دائرة في اجتماعات ضيقة عن اقتراحـــات معينة بخصوص اجلاء العدو عن اراضينا أن يبتســم هذا الوزير وهو يقول « لم تجهدون انفسكــــم هكذا ؟ انني موقن من انسحابهم وسيرسل الله عليهم طيـــرا ابابيل » . وبالرغم من ذلك تستمر المناقشات الحادة وترتسم الابتسامة الهازئة على شفتي الرجل « فالطير الابابيل ستقوم بالمهمه » . . .

على اي حال غاظ « الريس » ما أحدسه من « لحية الوزير » لانه ربما ظن انها « رشيت » من ابهى مالدس لوجه الله . فأمر الوزير أن « يزيل » لحيته « والا والله سأجعل البستاني يزيلها بمقصه الذي يزيل به الحشائش » وفعلا « خلع » الرجل لحيته ولكنه عاد « فركبها » مرة أخرى بعد وفاة « الرئيس » . وكمـــا اطلق « لحيته » اطلق « لسانه » في الرجل الذي مات بما حدث وبما لم يحدث .

ولا تسألوني لم اسنوزرد عبد الناصر ؟ فهــذا سؤال يضاف الى عشرات الاسئلة التي تحيرني ولا اجد لها جوابا !!! وعزائي انني لست وحدي في حيرتي !!!

ربما يكون ذلك قد تم وفاء للزمالة القديمة ...
وربما يكون قد تم جمعا للشمل ... والله اعلم .
ولا احب ان اتحدث كثيرا عن النوايا ... فالنوايا علمها عند الله .

الفصل الخامس

علاقة عبد الناصر بالمجلس التشريعي

رايه في الفصل بين السلطات ــ كيفية القاء بيان الحكومة ــ ممثل للحكومة كوسيلة اتصال بين مجلس الامة ومجلس الوزراء ــ ازمات داخل المجلس ــ التمتع الكامل بالحصانة البرلمانية داخل السجن ــ قانون التفويض ــ مجموعة المنيا ــ سلبيات كان من اللازم تلافيها .

موضوع حديثنا الان على جانب كبير من الاهمية اذ سوف يكون عن علاقة جمال عبد الناصر ومجلس وزرائه بمجلس الامة . وارجو الا يثير هذا القول دهشة احد بعدما حاول البعض ان يصور الدولة ايام عبد الناصر وقد خلت من مؤسساتها الركينة وتقاليدها الاكيدة وعلاقاتها المتناسقة . كان عبد الناصر يحكم من خلال مؤسسات لها اتجاهاتها العقائدية الواضحة يحكمها « ميثاق عمل » واضح لا غموض فيه ودستور استفتى عليه الشعب ووافق عليه واقره . ومن ضمن

هذه المؤسسات مجلس الامة الذي كان يتم انتخابه انتخابا مباشرا وفقا للدستور .

وبمناسبة ما ورد عن « الاستفتاء » فلنا وقفة قصيرة هنا . لم يكن من عادة عبد الناصر ان يفرط في اجراء « الاستفتاءات » لانه كان يعتبر ذلك نوعا من أنواع الدكتاتورية المقنعة ولم يكن هذا يتفق مع اسلوبه الذي كان يسمي الاسماء بأسمائها فان رأى ان صالح الدولة يحتاج الى قرار بعينه اقدم دون تردد ودون ما حاجة الى ستار يتستر من ورائه او غطاء يتدثر به حتى ولو كان القرار به تجاوزات هنا وهناك .

على أي حال .. اذا اردنا ان نتحدث عن العلاقة التي نحن بصددها علينا ان نقيمها في حدود افكاره عن « السلطات في الدولة » فلم يكن عبد الناصر يؤمن « بالفصل بين السلطات » وكان يعتبر ذلك مجرد خدعة كبرى .

ولننقل رأيه بالحرف الواحد عن « الفصل بين السلطات » من المحاضر الرسمية لمحادثات الوحدة الثلاثية بين القاهرة ودمشق وبغداد والتي تمت في ابريل ــ نيسان ١٩٦٣ في معرض الحديث عن السلطة في دولة الاتحاد « انا اعتبر عملية فصل السلطة خدعة كبرى لانه في الحقيقة مافيش حاجة اسمها فصل السلطات لان اللي عنده الاغلبية في البرلمان هوه اللي بياخذ السلطة التنفيذية والتشريعية . اذن القيادة السياسية اللي

عندها الاغلبية بيبقى في ايدها حاجتين : السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية . واذا أصبح في ايدها السلطة التشريعية أصبح بالتالي في ايدها السلطة القضائية لان السلطة القضائية خاضعة للسلطة التشريعية مهما قالوا عنها انها مستقلة . وان الكلام ده اللي طلع في فرنسا ايام مونتسكيو عن فصل السلطات كلام نظري . نأخذ انجلترا كمثل فحزب المحافظين دخل الانتخابات وأخذ الاغلبية يبقى البرلمان اي السلطة التشريعية في ايد مين ؟ حزب المحافظين . حزب المحافظين شكل وزارة بقت السلطة التنفيذية في ايد مين؟ حزب المحافظين . ازاي نقول هنا انه فيه فصل بين السلطات ؟ اذا فقد الاغلبية في السلطة التشريعية بيحصل له ايه ؟ لازم يسقط من السلطة التنفيذية . اذن اللي عاوز يحتفظ بالسلطة التنفيذية يجب يحتفظ بالسلطة التشريعية والتنفيذية . اذن القيادة للاثنين واحدة . فمبدأ الفصل بين القوات ده عملية في الكتب ولكنها غير موجودة واقعيا ابدا . البلد الوحيد اللي ممكن يحصل فيها هذا الموضوع هي الولايات المتحدة الامريكية ولكن مع وجود تضارب كبير في العمل وفيه احد رؤساء الولايات المتحدة سموه الرئيس فيتو لانه كان كل قرار يجي من المجلس يعمل عليه فيتو . ويرجعوا مرة اخرى للمجلس . ويحاولوا لغاية الان يتغلبوا على هذه المشكلة بأن الرئيس لا يتقدم بأي قرار الى

الكونجرس الا بعد ان يتشاور مع الحزبين » .

ولسنا هنا في مجال تقييم الاراء بقدر ما نحن في موقف نحاول ان نسجل فيه الاحداث . فقد كان هــذا هو فكره جاهر به في كل مناسبة ولعله كان واقعا تحت تاثير ما كتبه دوايت ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة في كتابه « فرض السلام Waging Peace » حينما انطلق الرجل يشكو في مرارة من العقبات والعراقيــل التي لاقاها من اعضاء الكونجرس مما يتفق تماما ووجهة نظر عبد الناصر . اذ أثار الرجل تحت وطأة تجربتــه المريرة مع رجال الكونجرس عدة موضوعات على جانب كبير من الاهمية .

● فمثلا تحدث عن « التعديل » الذي اصبح جزءا متمما للدستور الامريكي والذي يقضي بعدم شغـــل الرئيس لمنصب الرئاسة لاكثر من مرتين وطالب بتطبيق هذا التحديد على الاعضاء انفسهم حتى يقضي على ما اسماه « بالاقطاع الدستوري » وحتى يفتح المجال امام الدماء الجديدة لتسري في الجهاز التشريعي .

● ثم عاد ليطالب بتعديل الفيتو الذي يقضي بأن يكون حق التصديق او الاعتراض على القانون ككـــل وليس مادة مادة اذ ان هذا الوضـــع يجعـــل الرئيس « يعترض » على مواد صالحة في القانون او يوافق على مواد غير صالحة في القانون . واوضح انه من الانسب

ان يكون حق الاعتراض أو التصديق على القانون مادة مادة .

● ثم طالب بتعديل مدة خدمة اعضاء المحكمـــة العليا اذ لا يجوز ان تستمر مدة العضوية الـــى مـــدى الحياة اذ يهدد هذا الوضع التوازن بين السلطات . فان السلطة التشريعية ـــ والتي لا ينكر ايزنهاور ان تعيين بعض اعضائها يرتكن الى أسباب سياسية ـــ اذا كونت لها اتجاها معينا بطول المدة يمكنها ان تغير النظام القائم تدريجيا حسب معتقداتها علاوة على ان نظام « مـــدى الحياة » لا يتناسب مع التطور .

ثم يحدثنا التاريخ القريب عن كيف اقدم «ريتشارد نكسون » فيما سمى بيوم « السبت الاسود » على عزل « المدعي العام » الذي أمر رئيس الولايات المتحـــدة بأن يسلم اشرطة التسجيل للمحكمة ايام ازمة « ووترجيت » ويحدثنا التاريخ ايضا كيف قاتل نكسون ـــ وهو ممثل السلطة التنفيذية ـــ بشراسة وحتى اخر دقيقة للحفاظ على منصبه ولكنه لم يستطع الصمود لحظة واحدة حينما سحبت السلطة التشريعية ثقتهـــا به وحينئذ تقـــدم باستقالته المشهورة الى هنري كيسنجر وزير الخارجية كنص الدستور الامريكي .

ثم ما يريده حزب العمال او المحافظين ينفذ طالما وصل هذا الحزب أو ذاك الى السلطـــة ذلـــك لان

اقتراحات السلطة التنفيذية يسهل تحويلها الى تشريعات نافذة عن طريق الاغلبية المسيطرة لهـــا في المجالس التشريعية وكلنا يلمس الطريقة التي يتم بها حشـــد الاعضاء في جلسات التصويت لدرجة ان بعض الاعضاء المرضى يدخلون الى المجلس وهم محملـــون علـــى النقالات .

وعلى اي حال فانني اعتذر عن هذا الاستطراد على وعد بألا أعود اليه .

من التقاليد البرلمانية ان رئيس الوزراء يقـــدم برنامج حكومته الى المجلس لمناقشته قبل اقراره ويكون ذلك ايذانا بالثقة الا ان عبد الناصر بصفته رئيســـا للوزراء لم يفعل ذلك ولو لمرة واحدة . ولكن كان برنامج الحكومة يقدم للمجلس بعد مناقشته في مجلس الوزراء باحدى طريقتين : اما تكليف اقدم الوزراء بتلاوة بيـــان الحكومة كاملا واما يقدم كل وزير برنامج وزارته الـــى المجلس . ثم يناقش البيان داخل اللجان المختصة ثـــم تفتح المناقشات العامة في جلسات المجلس .

وكان رئيس المجلس في ذلك الوقت ــ اقصد بعد النكسة مباشرة وقبلها ــ هو السيد محمد انور السادات ولا اظن ان الرجل منع احدا من حقه في الكلمـــة حين طلبها ولا وضع قيودا على مناقشة اي موضوع تقـــدم احد الاعضاءبرغبة لمناقشته ولا سمح بالحرية تهـــدر داخل المجلس . أقول هذا ردا على ما قاله البعض عن

اهدار الحرية داخل المجلس ووضع القيود على حرية الكلمة والمناقشات .

وليس معنى هذا ان « الريس » لم يلق بأي بيان امام المجلس . فقد فعل ذلك عدة مرات في بعض المناسبات الهامة بل كان عقب القاء خطابه في بعض الاحيان يفتح باب المناقشة ولعل الجميع يعرفون ان الحوار والمناقشة والجدل كان هواية عبد الناصر المحببة اذا فتح موضوع للمناقشة وحواره ومجادلاته في اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية والمؤتمرات السياسية او المباحثات معروفة لا ينكرها عليه احد .

وكان الرئيس يستمع الى كل ما يجري من مناقشات داخل المجلس عن طريق خط تليفوني خاص مركب على ميكروفون حتى يوفق بين عدم حضوره الجلسات وبين ضرورة ان يعيش في الجو الذي تدور فيه المناقشات وحتى نوفر الجهد على من يتصيد في الماء العكر بأن يصور هذا العمل على انه من فعل « الاجهزة » و « التجسس » الى اخرَ هذه الكلمات التي ادخلت في قاموس « الجدل السياسي » لتخرجه عن موضوعيته نقول ان المناقشات في المجلس كانت علنية وحضورها مسموح للجميع ثم ان كل الرؤساء يفعلون ذلك ليمكنهم متابعة الجلسات التي لا تمكنهم ظروفهم من حضورها .

وللمحافظة على اتصال السلطة التشريعية بالسلطة التنفيذية كان عبد الناصر يعين احد الوزراء

مسؤولا عن الاعمال الخاصة بمجلس الامة وكان دائما ما يقع اختياره على احد الوزراء الذين يجمعون بين منصبهم الوزاري وعضويتهم في المجلس وقد وقع اختياره على شخص ولفترة قصيرة لاقوم بهذا العمل حيث كنت احد الوزراء الذين يتشرفون بعضويتهم في المجلس وقد ظللت اتشرف بعضويتي في المجلس النيابي حتى بعد ان اعتذرت عن اشتراكي في الحكم بعد وفاة عبد الناصر بفترة قصيرة بل تم اعتقالي بواسطة اجهزة الامن فيما عرف « بحركة ١٥ مايو » ووضعت في سجن «ابو زعبل» وسجن « القلعة » بل باشرت نيابة أمن الدولة التحقيق معي وانا « متمتع » تمتعا كاملا « بالحصانة البرلمانية »!!

وكان عبد الناصر لا يوافق بعض الوزراء في مسايرتهم لاتجاهات اعضاء المجلس وطلباتهم تجنبا للمناقشة والجدل فكان يكرر في مجلس الوزراء بأنه على الوزراء الاقلاع عن ذلك والوقوف بجدية امام ما يعتقدون انه لا يتمشى مع اتجاهات الحكومة المحددة او بما يتجاوز الامكانيات المتاحة مما يصعب تنفيذه .

وقد حدث عقب النكسة ان مجلس الامة انتقل بكامل هيئته الى منزل عبد الناصر وتنازل له عن حقه الدستوري في اصدار القوانين وهو ما عرف بعد ذلك « بقانون التفويض » . وبدأ الرجل يركز في مبدىء الامر على اصدار القوانين المتعلقة بالنواحي الحربية كالميزانية والتسليح والاتفاقات او الامور المتعلقة بالتجنيد

او تجاوز الاعتمادات او تجهيز الدولة للحرب او تكوين الاحتياط الاستراتيجي من المواد ذات الحيوية الخاصة . وكلها امور تتطلب سرعة الحسم والتنفيذ حيث كانت البلاد تخوض حرب الاستنزاف وتستعد في الوقت نفسه لحرب التحريـــــر . الا ان بعض الوزراء كان يرى ان المصلحة تقتضي استخدام « قانون التفويض » هــذا اختصارا للوقت وما لبث ان توسع البعض في استغلال الموقف واصبح لا يحال موضوعات ذات اهمية خاصـة الى المجلس . وبالرغم من ذلك فان المجلس لم يتحرك لتلافي هذا الوضع الا ان عبد الناصر اثار الموضوع في احدى جلسات مجلس الوزراء واعطى تعليماتــه بأن تحال كافة مشروعات القوانين الى مجلس الامـــــة بالاسلوب المعتاد « لاني في الواقع انا ما كنتش عـاوز التفويض ده الا في المسائل الحربية وانا لا اقرأ ما يعرض علي ومن الاسلم ان نضحي بالسرعة في سبيل الاتقـان والجودة » . وفعلا نفذ ذلك بكل دقة لدرجة انني لما طلبت اصدار قانون ببعض التعديلات في قانون المخابرات العامة رفض « الريس » التوقيع عليه وأمر باحالته الى المجلس في طريقه المعتاد .

وفي رايي ان الاجراء الذي اقدم عليه المجلس كان اجراء يتسم بالعاطفية ربما تم تحت وطأة الظـــروف الصعبة التي كانت تمر فيها البلاد في ذلك الوقت ولكن لا يعتبر ذلك مبررا كافيا لكي يتنازل مجلس الامة عــن

سلطاته الدستورية في وقت كان يتحتم عليه التمسك بها بل التدقيق في ممارستها لا التفريط فيها وتسليمها . والشيء الغريب حقيقة ان كثيرا من الاعضاء ممن حرصوا على ان يكونوا في مقدمة «المتنازلين والمفوضين» في ذلك الوقت هاجموا عبد الناصر بعد وفاته واتهموه بأنه كان يركز السلطة في يديه ! ! ! علما بأن اي رئيس لا يمكنه ان يفعل ذلك مهما كانت شخصيته ومهما كان جبروته الا اذا حدث تنازل وتفريط كما حدث في « قانون التفويض » .

واكبر مثل على ذلك الصراع الذي حدث بين « ريتشارد نكسون » ممثلا السلطة التنفيذية وبين الكونجرس ممثلا السلطة التشريعية فقد اعتدى نكسون على سلطات الكونجرس في اكثر من مناسبة وأمر بدفع القوات الامريكية الى اختراق حدود دول ذات سيادة من وراء ظهر الكونجرس وقام بممارسة « الدبلوماسية السرية » هو ووزير خارجيته ومستشاره للامن القومي هنري كيسنجر دون علم الكونجرس وما لبث اعضاء الكونجرس ان انتهزوا فرصة « ووترجيت » وذبحوا الرئيس الذي تجاسر على الاعتداء على سلطاتهم وما لبثوا ان اصدروا قانون « سلطات الحرب War Powers » عام ١٩٧٣ يحتم على الرئيس في كل الظروف « ان يتشاور مع الكونجرس قبل ان يدفع

بالقوات الامريكية الى مواقف معادية او محتمل ان تكون معادية وعقب قيامه بذلك عليه ان يخطر الكونجـرس في موعد لا يتجاوز ٤٨ ساعة واذا لم يوافق الكونجرس على ذلك يتحتم على الرئيس اعادة القوات وسحبهـا خلال ٩٠ يوم » .

اعود فأكرر ان التفريط في الحقوق هو الذي يفتح الطريق امام اي حكم شمولي وان أؤكد بالتالي ان وجود « مراكز القوى » في اي دولة هو ضرورة من ضروريات اي حكم ديمقراطي وربما تحتاج هذه النقطة بالذات الى حديث مستفيض لا مكان له الان .

وفي فترة بعد النكسة كان هناك في واقع الحـال مجلسان : المجلس الذي تم انتخابه قبل النكسة ثم حل بعدها والمجلس الذي استمر بعد ذلك حتى وفاة عبـد الناصر وكان مصيره الحل قبل استكما لمدته ايضا بعد ذلك . وقد واجه المجلسان موقفين دقيقين حينما انقسمت القيادة السياسية على بعضها ايام عبد الناصر وبعـد عبد الناصر .

فقد حدث بعد النكسة مباشرة فراغ هائل اذ كان رد الفعل عنيفا للغاية على كافة المستويات بما في ذلك مجلس الامة وانقسمت القيادة السياسية على نفسهـا انقساما لمسه الجميع حينما رفض المشير عبد الحكيـم عامر ـــ رحمه الله ـــ ان يمتثل لامر الرئيس بتركه قيادة القوات المسلحة واقدم « عامر » بعد ذلك على تصرفات

جامحة بأن اعتصم في منزله « بالجيزة » تحت حراسة افراد الشرطة العسكرية وحراس مدنيين استدعاهــم من « المنيا » وهي المحافظة التي ينتسب اليها المشيــر واعتصم معه بعض خلصائه وكون عامر بذلك « جزيرة مقاومة » امام السلطة الشرعية . وبدأ عامر علاوة على ذلك يوسع من اتصالاته لدى المدنيين ومن ضمن هؤلاء اعضاء مجلس الامة وتكون في داخل المجلس ما عــرف « بمجموعة المنيا » وهم اعضاء مجلس الامة من تلــك المحافظة التي ينتسب اليها المشير ولم يقـــدر هؤلاء الظروف التي تمر بها البلاد بل انضموا من فورهم الــى « ولد » بلدهم كما يقول اهل الصعيد فأحضروا لــه الحراس وبدأوا في توزيع المنشورات وحض الشعــب على الثورة ضد النظام وواجه عبد الناصر العاصفــة بثباته المعهود وتدخل رئيس المجلس انور الســادات لحسم الموقف فجمد عضويتهم في المجلس وعزلهم واقترح اعتقالهم ووضعهم تحت الحراسة . وتم القضاء علــى الفتنة داخل المجلس كما تم القضاء على الفتنة خارجــه باحداث انتهت بانتحار المشير عامر تحت وطأة مشاعره الضاغطة لبدء احساسه بالكارثة التي قاد اليها البلاد ومن انكشاف زواجه العرفي من احدى الممثلات والذي لم يكن معروفا من عائلته ومن كشف المؤامرة التي دبرها لقلب نظام الحكم التي تم التحقيق والفصل فيها امــام محكمة الثورة التي شكلت خصيصا لذلك .

وبعد فترة تم حل هذا المجلس واجريت انتخابات جديدة لمجلس نيابي اخر .

وقد واجه هذا المجلس بدوره وفاة عبد الناصر ، وانتقال السلطة الى الرئيس الجديد ، ثم لم تمر شهور معدودة على ذلك حتى واجه انقساما اخر في القيادة السياسية في احداث مايو ١٩٧١ وقام المجلس بطرد رئيسه وفصل ستة عشر **عضوا** من **اعضائه** وبعد فترة قصيرة كان نصيب هذا المجلس الحل هو الاخر . وكما سبق وان ذكرت فقد كنت عضوا في هذا المجلس عن دائرتي الانتخابية ولم يشملني قرار الفصل هذا وبقيت « متمتعا » « بحصانتي الدبلوماسية » حتى بعد ان تم اعتقالي وبدء التحقيق معي بواسطة نيابة امن الدولة وتفتيش منزلي ليلة بطولها بل وبقيت « متمتعا » « بحصانتي الدبلوماسية » حتى بعد ان تم التحفظ على أموالي وممتلكاتي وهي قليلة ولله الحمد ... وبعد فترة ليست بالقصيرة تنبه المجلس الى الموقف فقرر « اسقاط » « الحصانة » عني وبذلك حرمت من «التمتع» بها بعد ذلك وتكرم « المجلس » وابقى على عضويتي وأنا في السجن حتى صدر قرار حله ففقدت عضويتي مع الاخرين .

وكانت الحكومة تمثل في مناقشات المجلس بعدد من اعضائها ليشتركوا في المناقشات الدائرة او ليجيبوا على طلبات الاحاطة او الاسئلة التي توجه من

الاعضاء الى الوزراء المختصين وفي بعض المواقف كان الامر يحتاج الى اتصال الوزراء برئيس الوزراء للحصول على توجيهاته قبل مناقشة موضوع معين .

ولم تكن جلسات المجلس هادئة كلها بل في بعض الاحيان تميزت بالسخونة وقد حدث على سبيل المثال ان عبد الخالق الشناوي وزير الري كان قد اصدر تعليماته الى ممثليه في المحافظات بخصوص بعض الموضوعات الفنية داخل وزارته وقد عن «لوجيه اباظة» محافظ « البحيرة » ان يحول دون تنفيذ هذه التعليمات وقام نواب المحافظة بتأييد موقف المحافظ واثاروا مناقشة الموضوع في المجلس. فهب الشناوي وهو رجل « دغري » يدافع عن موقف الوزارة وحقها ويتهم « المحافظة » بأنها تفسد عليه أموره وأن هذا الحال لا يمكن السكوت عليه . وقام النواب بدورهم «بالواجب» وتصدوا للوزير « فانهم اعلم بمتطلبات محافظتهم من السلطة المركزية وكان الواجب على الوزير قبل أن يصدر تعليماته أن يستطلع رأي المحافظة حتى تكون التعليمات متمشية مع الواقع . وغضب الشناوي واعتبر ان هذا ماس بالكرامة وانه في هذه الحالة لا يمكنه أن يستمر في منصبه وخرج غاضبا لا يلوى على شيء . وطلب مقابلة عبد الناصر فورا فقابله « ابو خالد » ودارت اتصالات تم على اثرها تسوية الموقف

وعاد الجميع الى « قواعدهم » سالمين .

ومرة اخرى ودون سابق انذار وقف « علوي حافظ » نائب « دائرة الدرب الاحمر » وطلب الكلمة واعطاه رئيس المجلس انور السادات الكلمة فورا. ووقف علوي حافظ وفي كلمات كطلقات المدفع الرشاش اخذ يكيل الاتهامات الثقيلة « لعلي صبري » امين الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت ثم وجه بعد ذلك عددا من « الطلقات » الى منظمة الشباب ثم اتجه الى الجهاز التنفيذي يكيل له الضربات وبالرغم من ان كلمة العضو بحكم « اللائحة » لم تكن لتتجاوز خمسة عشر دقيقة. الا ان « علوي » تجاوز الوقت المحدد وربما كان التجاوز في حدود ضعف الوقت وربما اكثر من ذلك ولم يوقفه رئيس المجلس واخذ علوي « راحته » ورجع الى مكانه بعد ان كان قد افرغ كل الطلقات التي كانت في جعبته . وانفضت « الجلسة » بعد ذلك وكان « علوي » ما زال في ثورته وانضم اليه آخرون . الا ان الموضوع ايضا سوي بالطرق التي تسوى بها مثل هذه الامور وذلك بالقفز فوق المشكلة حتى لا تنفجر في صانعيها وربما تنفجر في غيرهم ولو بعد حين .

وفي تقديري فقد كان يمكن للمجلس ان يتحرك بطريقة افضل لو انه تخفف من عدة قيود كانت تثقله وفي رأيي فانها جميعا كانت من صنع اعضائه . . .

● فكان هناك قيد الجمع بين « الوظيفة » و « عضوية

المجلس » اذ كان يسمح بأن يجمع النائب بين عضويته في المجلس ووظيفته في القطاع العام وشركاته وكـان هذا القيد يتمثل في التناقض بين « مسؤولية الوظيفة » و « مسؤولية النيابة » . فالوظيفة مسؤوليتها تنفيذيـة والنيابة مسؤوليتها تشريعية ورقابية . وبذلك كـان العضو يجد نفسه في وضع لا يقوى فيه على محاسبة السلطة التنفيذية التي تتمثل في وزيره حفظا علـى « لقمة العيش » او المركز . كما أن الوزير كان يصعب عليه في نفس الوقت ان يجد نفسه في وضع المحاسبة من مرؤوسيه الذي لبس « قبعته » الثانية فاصبح يمثل السلطة التشريعية في المساء بعد ان كان يمثل السلطة التنفيذية في الصباح .

● كما كان هناك قيد ثقيل اخر تمثل فـي ولاء العضو « لحزبه الواحد » متمثلا في الاتحاد الاشتراكي. وزاد من صعوبة موقف العضو أن وجد نفسه في بعض الاحيان يحضر اجتماعين اهدافهما واحدة ... فكـان عليه أن يحضر اجتماعات ما كان يسمى « بالهيئـة البرلمانية » في قاعة غير قاعة المجلس ليتم الاتفاق على قرارات معينة ثم يعود ليجتمع « ملتزما » في قاعـة المجلس مرة اخرى ليوافق على نفس القرارات بطريقة رسمية . فكان العضو يجد نفسه والحالة هذه يتحرك بين اقطاب ثلاثة : الحزب ، الهيئة البرلمانية ، مجلس الامة .

● ثم زاد من صعوبة التحرك اتجاه بعض الاعضاء الى الحصول على عمل اضافي الى جانب عضويتهم في المجلس . فسعى البعض للتعيين « كحراس » فـــي « الحراسة العامة » لتقاضي مرتبات شهرية لا يؤدون في مقابلها اي عمل جدي مما جعل « الحارس العام » في ذلك الوقت يرفع لي بصفتي وزيرا للدولة مذكرة بهذا المعنى وقد امكن تدارك الموقف بعد مقابلتي لرئيـــس المجلس اذ تم الاستغناء عن خدماتهم فورا بدافع الحفاظ على كرامة « النيابة » . وكان القليلون منهم قد استغلوا سلطاتهم بما يعاقب عليه القانون الا ان مساءلتهم لـــم تتم لتغيير الاوضاع تغيرا كليا اثر وفاة عبد الناصر .

واتجه البعض لمحاولة الحصول على « شقـــق الحراسة » او « شركات التأمين » وحينما انضم الـــى موكب « المطالبين » اعداد كبيرة تم التصدي لهذا التيار برفع اقتراح وافق عليه « عبد الناصر » بالغاء نظـــام « التخصيص » واستبداله بنظام « البيع في المـــزاد العلني » .

ومن الغريب ان بعضا من هؤلاء وقف ليهـــاجـــم « الانحرافات » في حماس وقدرة يستوجبان الاعجاب والدهشة والاسف !!! واصبح الشرفاء الابرياء فـــــي موقف الاتهام واصبح المتهمون في مقاعد الادعاء .

وقد تحدث الكثيرون فــــي تقييم الاوضـــاع « البرلمانية » في تلك الفترة واوردوا كلاما كثيرا عـــن

عدم ممارسة الحرية داخل المجلس . وفي رايـــي ان كثيرا مما قيل اتسم بالسطحية التي لا تمس الجوهـــر وتعمد ان يسير في الدروب الضيقة لتجنب السير فـــي الطرق الفسيحة الواضحة .

فلا يمكن ممارسة الحرية لمن كبل يديه طائعـــا مختارا بل سعى الى ذلك باصرار قبل ان يضع نفســـه في وضع الممارسة . فلا بد اولا أن يتخفف الانسان مما يثقل السير ويعوق الحركة حتى ولو كان هذا الذي يثقله ولاؤه لحزبه أو ولاؤه لذاته فان الـــولاء للوطن يجب الولاءين او يجب ان يكون الامر كذلك .

حينئذ يشعر الانسان في اي موقع بالقدرة علـــى ممارسة حقوقه ، وبالقوة التي تحفزه على عدم التنازل عن سلطاته .

وبلادنا في حاجة كبيرة الى مثل هؤلاء . او هكذا اظن وأعتقد .

البــاب الثانــي

عبد الناصر وإتخاذ القرار

الفصل السادس : مفاتيح شخصية عبد الناصر
الفصل السابع : الظروف والعوامل

الفصل السادس

مفاتيح شخصية عبد الناصر

مصريته ــ عروبته ــ عبد الناصر ليس ملاكا ــ الاستقامة ــ الفرق بين الثورة والانقلاب ــ المعرفة والاطلاع ــ عسكري يصل الى طريقه من اقصر طريق.

« عبد الناصر واتخاذ القرار » موضوع كبير اختلفت فيه الاراء ...

قد يراه البعض انه صانع للعديد من القرارات التاريخية التي غيرت وجه « مصر » بل غيرت كل ما كان يجري في المنطقة من احداث . وقد يراه البعض الاخر في صورة من يتخذ قراره كنوع من « ردود الفعل » اكثر منها قرارات نابعة من الذات تعبر عن الفعل وليس نتيجة لانفعال عاطفي . وقد يراه آخرون في

صورة صاحب القرار المفرد الذي لا يستشير احـدا او يستمع الى احد .

وهذا الاختلاف البعيد امر طبيعي بالنسبة للعمالقة ... البعض يراهم في صورة الملائكة والبعض الاخـر يراهم في صورة الشياطين ... وكان عبد الناصر عملاقا فهذا امر لا شك فيه .

ولعلنا نكون بهذه المقدمة قد وضعنا « العربـة » امام « الحصان » فما كان يجب ان يكون في «الخاتمة» وضعناه في « المقدمة » . ولكن لا بأس في ذلك خاصة اثناء معالجة موضوع متشابك مثل هذا الموضوع الـذي يتعلق باصدار القرار .

وقد اعجبني ما كتبه « تيودور سورنسون » احد معاوني الرئيس « جون كينيدي » في كتابه « اتخـاذ القرارات في البيت الابيض » وهـو مجموعة مـن المحاضرات التي القاها في جامعة « كولومبيا » قبـل ذلك اذ كتب يقول « قد ينشد الرئيـس من الكونجرس المشورة وقد ينشدها من وزرائه او مستشاريه بل قـد يطلب آراء الصحافة او الاحزاب او قـد يستطلع اتجاهات الراي العام ولكن مهما تعددت مصادر المشورة فانه عندما تحين اللحظة الحاسمة ... لحظة مواجهـة الحقيقة لا يكون هناك مجال لتعدد الاراء ولا يبقى سوى شخص واحد يتخذ القرار بمفرده ويتحمل مسؤوليته . ذلك الشخص هو رئيس الولايات المتحدة الاميركية » .

ويقول جون كينيدي الرئيس السابق للولايـــات المتحدة « ان شعور الوحدة الذي يخيم دائما على حياة الرئيس هو احد جانبي الصورة لان الرئيس هو في كل وقت اكثر الناس استقبالا للاراء والمشورات المتعارضة والافكار الطنانة على ان هذه الاراء والنصائح ضرورية لعملية اتخاذ القرار فهي لا تعطي الرئيس ما يحتاج اليه من معلومات فحسب وانما تضع امامه ايضا احتمالات وحدود القرار المطلوب ومن ثم فان الرئيس الحكيـــم يستمد قوته وافكاره من الشعب ومع ذلك فهو في نهاية الامر يقف وحده في انتظار القرار الذي يتحتم عليـــه اتخاذه » .

ويقول الرئيس اندرو جاكسون « لقد عـــودت نفسي على تقبل آراء الاخرين بالاحترام ولكنني مسؤول دائما عن اتخاذ قراراتي بنفسي » .

ونختتم هذه الاقوال بقول الرئيس هارونج « انني اصغي الى احد الجانبين فأجده على صواب ثم اصغي الى الجانب الاخر فاجده لا يقل صوابا عن سابقه فأجد نفسي حيث بدأت . . . يا الهي ما اسواه من منصب » .

واتخاذ القرار يكاد ان يكون هو الواجب اليومي للرئيس فوسط تصارع الارادات فوق مسرح الاحداث حيث تتدخل المفاجئات بما ليس في الحسبان وحيـــث تنتشر السحب التي تغلف الحقيقة وحيث تتغير الاحداث تبعا لعوامل غير متوقعة عليه ان يتخذ قراره الذي لا بد

وان يتسم بالحكمة والوضوح والحسم واضعا في اعتباره ما لديه من قوة حقيقية فالسياسة كالسوق التجارية فعلى قدر ما في جيبك من نقود يمكنك ان تشتري . اذن ان تعرف القيمة الحقيقية لما في جيبك شيء هام ، وان تعرف مقدار ما يمكنك ان تشتر به شيء أهم والا كسب التاجر الصفقة ... قد يعطيك اقل مما تستحق ، وقد يعطيك بضاعة فاسدة ، او قد يأخذ كل ما في جيبك دون ان يعطيك شيئا .

ولا اعتقد ان هذه المقدمة تعتبر كافية لتهيئة المناخ الذي يجعلنا نطمئن الى الدخول في الموضوع بمفهوم مشترك في الاسس على اقل تقدير . اذ حتى يمكننا ان نقيم « القرار » — اقصد اي قرار — علينا ان نتعرف على شخصية صانع القرار وهو عبد الناصر وعلى الظروف التي كانت سائدة وقت اتخاذ القرار . فنحن نتحدث مثلا في جملة واحدة عن عبور الجيوش الفرنسية جبال الالب بقيادة « نابليون بونابرت » ولكن باستعراض الظروف السائدة في ذلك الوقت — من شتاء قارس وثلوج تغطي كل شيء وجيوش الاباطرة تحتشد على اجناب قواته للقضاء عليه وافتقار جيوشه الى الملبس والمأكل — لعرفنا ان « بونابرت » واحد كان يمكنه أن يتخذ قراره وينفذه ولذلك أفسح له التاريخ مكانه اللائق به رغما عن هزيمته وسط ثلوج روسيا والتي اجبرته على الانسحاب منهزما وهو يدق ابواب « موسكو » .

فالدولة ليست مجرد هياكل تنظيمية يتربع الرئيس على قمتها لانه لو صح ذلك لاصبح الرئيس مجرد دمية تحركها الاجهزة كيف تشاء ... فالحكومات وانظمة الحكم ليست كيانا يضم مجموعة من القوى الصماء ولكنها مجموعة من البشر وهي بذلك ليست مجرد آلة تدور بل هي في حقيقتها كائن حي يتحرك . والحركة لا بد وان تتجه الى هدف معين والرئيس هو الذي يوجهه ويقود فيحفظ للحركة اتزانها وتناسقها . فالحكومات والحالة هذه من صنع الساسة وليس العكس والرئيس هو الذي يقود الراي العام ولا يسمح للراي العام ان يقوده ويحركه .

« فشارل ديجول » هو الذي اسقط الجمهورية الرابعة ليعطي المستعمرات الفرنسية حق تقرير المصير في ظل « الجمهورية الخامسة » . وبالرغم من ان كلا من « لينين » و « ستالين » يدينان بنظريات انجلز وماركس الا ان هناك تباينا واختلافا واضحا في اتجاهات الثورة البلشفية ايام الرجلين ...

ولذلك فان الدول تسعى دائما الى جمع المعلومات عن الرؤساء الحاليين والمتوقعين لمعرفة مع من يكون التعامل .. هل التعامل مع حكيم يزن أموره فيعطي بقدر ما يأخذ ؟! ام مع مجنون يحب العظمة ولا يرى الا شخصه وذاته ؟! ام مع متمسك بالحكم عزل نفسه عن شعبه فيسهل ابتزازه ؟! ام مع من يعرف قدره وسط

المساومات الدائرة فيعمل حسابه ؟!

اذن فحتى نزيد الامور وضوحا علينا ان نتحدث عن مفاتيح شخصية عبد الناصر .

● كان عبد الناصر « مصريا » لحما ودما او كما نقول « أبا عن جد » . وبذلك فانه كان متعصبا لمصريته الى اقصى حدود التعصب فنجده حتى بعد ان وصل الى قمة السلطة لا يميل الا الى اللبس المصري والاكلة المصرية والعادات المصرية فلم يحاول ابدا ان يتشبه بالاجانب في شيء ... السيجارة هي هوايته المفضلة قبل ان يقلع عن التدخين فلم يمارس تدخين « السيجار » او « البايب » ... سعادته الغامرة حينما حلت السلعة المصرية محل السلع الاجنبية التي كانت تملأ الشوارع والمحلات . صراحته المتناهية في التعامل فالابيض ابيض والاسود اسود في حين ان كثيرا من المواقف تتطلب ان يكون اللون « بين بين » ... ندرة سفره الى الخارج فلم يكن يستريح الا في بيته .

● وكان « عبد الناصر » يعتز بعروبته ... كان من اكثر زملائه قناعة بالعروبة وان مصر ما هي الا جزء من الوطن العربي الكبير . فوقف وحده يحارب معركة حلف بغداد ليخرج المشرق العربي من مناطق النفوذ . والقى بثقله خلف ثورة الجزائر حتى وقعت اتفاقية « ايفيان » ، ووقف الى جانب الملك محمد الخامس وهو في المنفى حتى عاد ثانية يتربع على عرش المغرب

المستقل ، ووافق على الغاء الحكم الثنائي في السودان حتى يتيسر له حق تقرير المصير ، ثم القى بثقله خلف ثورة اليمن حتى يتخلص من « الامامة » الفاسدة ، ثم وقف خلف ثورة « عدن » حتى حصلت على استقلالها ، ثم اهم من كل ذلك حقق الوحدة العربية مجسمة في « الجمهورية العربية المتحدة » . . .

وكل موقف من المواقف السابقة كان يحتاج الى قرار . . . وربما حدثت انتكاسة هنا او فشل هناك ولكن عروبته كانت دائما ما تحول دون أن « يكفر » بما يحدث او يرتد عما يؤمن به . . .

● وكان الرجل « بشرا » كالملايين . . . له حسناته وله سيئاته . . . له ايجابياته وله سلبياته . . . يحب ويكره ، يحنو ويقسو ، يمرض ويعافى ، يخطىء ويصيب ، ينجح ويفشل ، يصادق ويعادي .

وتقييم قرارات عبد الناصر على غير هذا الاساس فيه ظلم للرجل وللتاريخ .

فمن صوروا « عبد الناصر » على انه « شيطان » تجاوزوا الحقيقة اذ تركوا لاحقادهم الشخصية العنان فشوهوا التاريخ واساءوا الى بلادهم خالطين بين دوافعهم الشخصية ودوافعه العامة . . . وهذا امر لا يجوز .

ومن صوروه على انه « ملاك » لا يخطىء غلبت عليهم عوامل العاطفة والحماس وهذه مقاييس لا يعتد بها

في وزن الامور وتقييمها ذلك أن اي رئيس يجتاز في رئاسته ساحات الانتصار والفشل ومجالات الصواب والخطأ وتماما كالرسم البياني تكون الصورة ... ارتفاع وانخفاض . وهذا شأن « البشر » كما قلنا لان « الملائكة » لا يعيشون على ظهر الكوكب الذي نحيا عليه .

كان عبد الناصر وهو يصنع قراره انسانا اولا واخرا بما له او بما عليه .

● وعرف الرجل بالاستقامة فلم يجسر احد ان يتحدث عن « نزوة » او « سقطة » . كان مستقيما في شبابه الامر الذي يعرفه عنه كل اصدقائه وزملائه فلم يكن له زلة واحدة مما يقع فيها الشباب عادة . وظلت هذه الاستقامة تلازمه الى آخر يوم في حياته . فلم تكن له جولات او صولات في « الشوارع الخلفية » كبعض من يصلون الى السلطة . هذه الاستقامة مكنته قبل الثورة من متابعة الحياة السياسية في مصر متابعة دقيقة عن طريق اتصاله بمعظم الاحزاب والجمعيات القائمة ، كما مكنه بعد الثورة من ان يهب كل دقيقة في حياته الى امته مكبا على دراسة المشاكل المتلاحقة محاولا اصلاحها ... هذه الاستقامة انعكست على قراراته كلها فلم يتخذ قرارا واحدا فيه كذب او نفاق « فنحن نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا » . كان

ربما يصدر قرارا خاطئا ولكنه كان دائما يصدر القرار الصادق اذ لا يضع في اعتباره وهو يصدر القــرار الا المصلحة العامة في ضوء ما يراه صحيحا . فكان قــراره صريحا واضحا حتى ولو كان به تجاوزات فكان مثلا لا يعطي باليد اليمنى شيئا ليسحبه باليد اليسرى ، ولا كان يتستر وراء ساتر يغلف به قراره او يبرره .

● ونشأة عبد الناصر مفتاح هام لشخصيتـــه ومعتقداته ... فقد نشأ الرجل في بيئة فقيرة تكاد لا تملك شيئا . وذاق طعم المعاناة كالملايين الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى التي نشأ فيها . ربما عانى من عدم توفر تكاليف الدراسة ولم يكن التعليم بالمجان بعد ... وربما عانى من عدم توفر تكاليف الحياة الاخرى ... وربما عانى من غياب السند القوي الذي يدفعه فــــي دروب الحياة ... ولم يكن غريبا على شخص عانى ما عاناه ان يقف دائما الى جانب الكادحين من العمـــــال والفلاحين والموظفين ... كان يشعر باحساس هؤلاء وهو ما عبر عنه « باحساس الطليعة الثورية بمشاعــر الجماهير واذا فقدت هذه الطليعة الثورية هذا الاحساس لحق لطليعة ثورية اخرى ان تقفز الى السلطة لتحقــق آمال الجماهير وترفع عنها اسباب المعاناة » . لم يكن في قراراته تلك يشعر ابدا بحقد على طبقة بعينها بــل نجده مثلا في قرارات الاصلاح الزراعي يزيد من عــدد الملاك ويحاول التقريب بين الطبقات ، وفي قراراتــــه

الخاصة بالحراسة كان يهدف في معظمها الى تمصير الشركات والبنوك بعد ان كانت في يد الاجانب والى القضاء على الاقطاع بكافة انواعه والى انهاء سيطرة راس المال والى الحد من نشاط المجرمين وتجار المخدرات . صحيح حدثت اخطاء في التنفيذ قد يصل الى حد وقوع التجاوزات ولكن الامر الذي يمكن ان نقطع به انه لم يصدر هذا بدافع من الحقد الطبقي او الانتقام. وفي قراراته الخاصة بمجانية التعليم كان يقف الىجانب العاجزين عن توفير تكاليف التعليم الباهظة . وفي قراراته الخاصة بالعمال كان ينحاز الى طبقات العمال ليمنع عنهم استغلال راس المال .

● ولم ينس عبد الناصر لحظة واحدة قبل الثورة انه يجهز ويخطط لثورة كما لم ينس ابدا بعد ان وصل الى السلطة انه قائد لثورة فهو لم يورث حكما ولم يخلف غيره في سلطة بل هو الذي سعى ودبر وقاد زملاءه ليسقط عرش مصر ويغير نظام حكمها . ولم يكن الاستيلاء على السلطة في حد ذاته غرضا يسعى اليه بل كان مجرد وسيلة لتحقيق اهداف تطلع ان يحققها لصالح القاعدة العريضة للجماهير الكادحة . لانه لو كان قد اكتفى بالوصول الى السلطة لكان ذلك مجرد انقلاب وحتى نرى انعكاس ثوريته على قدراته لا بد ان نحدد الخلافات بين الثورة والانقلاب :

★ فالثورة تقوم ضد افكار ومعتقدات لهدمها من

اساسها ثم تغييرها اما الانقلاب فيقوم ضد افراد ... البعض ذهب والبعض جاء ثم تسير الامور كما هي حتى يأتي آخرون .

★ والثورة لا تعترف بالامر الواقع بل تطلق رياح التغيير لتدك ما هو كائن حتى تقيم على انقاضه بنيانا جديدا مختلفا تماما عما كان ... أما الانقلاب فيكتفي باجراءات اصلاحية هنا وهناك لا تعالج الاساس المريض بقدر ما تضع « رتوشا » لتجميل السطح .

★ والثورة بذلك تكون لصالح الجماهير الكادحة وما دام الامر كذلك فانها تصطدم بالضرورة مع طبقات خاصة مستغلة اما الانقلاب فانه يحاول ان يتقرب الى هؤلاء وهؤلاء ويكتفي بالوعود الرنانة يحاول بها ان ينقل الجماهير من حاضرهم الى مستقبلهم خلال دروب من الاحلام والوعود وهذا امر لا يمكن ان يدوم .

★ ويكون للثورة على هذا الاساس لون خاص بها فلا تكون كالماء لا لون له ولا رائحة وبالتالي يكون لها اعداء واصدقاء بعكس الانقلاب الذي يتلون كالحرباء لكل ظرف لونه ولا عجب بعد ذلك أن الانقلاب يخلط دائما بين الاصدقاء والاعداء فيضل الطريق ويقع فريسة بين مخالب الاعداء الذين يتوهم انهم اصدقاء ، ويبتعد عن الاصدقاء الذين يتخيل انهم اعداء .

★ والثورة حركة تغيير مستمرة لا تقف عند حد فهي كالماء المتدفق يسري هنا وهناك اما الانقلاب فهو

مجرد رعشة متخاذلة وان حمل اسم الثورة وهو كمجرى ماء قد يجف بعض الوقت وقد تجري فيه بعض المياه احيانا لتسكن وتتوقف ثم تتحول الى ماء آسن رائحته تزكم الانوف .

★ والثورة دائما معطاءة اخاذة فهي تأخذ من الغير وتعطيه فلا تتقاعس عن مساعدة غيرها من ثورات لانها ترى في ذلك تحقيقا لامنها وتوطيدا لمركزها ورصيدا لها تستخدمه وقت الشدة والعسر . اما الانقلاب فربما يرتعش في منتصف الطريق فيبيع الصديق ثم ما يلبث ان يتراجع مسرعا الى عقر داره وينتظر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .

★ والثورة طريق شاق صعب تحفه المتاعب والاخطار اما الانقلاب فشيء يجيء ويذهب دون ان يشعر به احد . وبذلك تكون السلطة في الثورة عبئا ومسؤولية بعكس السلطة في الانقلاب فهي مجرد غنم ورفاهية .

● ثم كان عبد الناصر من العسكريين المقاتلين ذوي الاطلاع الواسع وكان هذا يميزه بالجسارة والحسم والجلد في العمل والتقشف في المعيشة ومحاولة الوصول الى الغرض من اقصر طريق وعدم خشيته من خوض المعارك المتتالية والقتال من اجل ما يريد والاصرار على تحقيق الهدف ثم ميله دائما الى المفاجأة والى جانب ذلك فانه كان يميل الى جمع المعلومات قبل اصدار

القرار ثم ربما يضيق صدره من اي اجراء يعترضه عند التنفيذ . كان يحب الطاعة الكاملة بالرغم من انه كان دائما يقول « لو الواحد أمر الجنود في وحدة عسكرية ان يدوروا الى اليمين فان الجميع يتجهون الى اليمين دون استثناء ولكن لو الواحد وقف في ميدان الاوبرا وأمر الناس بالاتجاه الى اليمين فالبعض يفعل ذلك والبعض الاخر قد يتجه الى اليسار او الخلف » .

هذه المفاتيح التي ذكرتها تكون شخصية صاحب القرار ...

فمصريته المتزجة بعروبته جعلته يتخذ اخطر القرارات التي غيرت مسيرة الامة العربية فعاش من اجل ذلك ومات وهو يفعل ذلك ولف جسده بالعلم العربي ثلاثي الالوان ذي النجمتين .

واستقامته التي اشتهر بها جعلته لا يحني راسه امام احد ويطالب الجميع بذلك قائلا « ارفع راسك يا اخي » .

ومعرفته الواسعة واطلاعه العميق على ما يدور في العالم وبالعالم اكسبته ثقة كبيرة في نفسه وجعلته عملاقا ضخما اثار احقاد الكثيرين وغيرة العديدين .

وشجاعته التي فطر عليها جعلته امام الجماهير العربية كأحد فرسان الماضي جاءهم على غير موعد وربما قبل الاوان .

وثوريته المستمرة جعلته يخوض المعارك العديدة ربما بأكثر من موارده المتاحة والبت عليه القوى المضادة ليحولوا بينه وبين اماله التي اسموها اطماعا وبين احلامه التي اسموها تسلطا .

وعسكريته التي عاش فيها احلى ايامه جعلته ربما يضيق بالجدل الذي يعرقل العمل والحوار الذي لا ينتهي الى قرار .

في ضوء هذه الشخصية التي ربما اصبحت واضحة تماما امام « رسامي الكاريكاتير » علينا ان نقيم قراراته .

ولكن في اعتقادي ان هذا لا يكفي .

فالشخصية هي احد جوانب الصورة ولكن الجانب الاخر اهم واكثر تأثيرا وهو الجانب الذي يستعيد الظروف التي عاش فيها صاحب القرار ...

فصاحب القرار دائما لا يملك حريته الكاملة يفعل ما يشاء ... فهناك ارادات اخرى امامه وظروف ضاغطة تتفاعل مع رغباته واحلامه .

ولا يمكن ان يكون الحكم على « قرار » الا اذا قيم في اطار الظروف التي اتخذ فيها اذ ربما يكون قرار الامس غير صالح لاحداث اليوم او الغد فالظروف تتغير وتتبدل ولا بد وان يكون القرار مطابقا للظروف التي تواجهه والا اصبح كالسهم الطائش الذي ينطلق في الفضاء دون هدف او غاية .

الفصل السابع

الظــروف والعوامــل

التحالف الرهيب بين الاستعمار والرجعيــة — فلسطين ضرورة لامــن مصر — الاستعمار يحــاول التطويــق — المجتمع المصري يقع تحت ضغطيــن رئيسيين — الخلل في الملكيــة والخلل في التمثيــل النيابي — علاقات غير متوازنة بين طبقات المجتمع — الجيش لا يملك السلاح والعتاد — الضغوط الخارجية والداخلية — النكسة ..

تحدثنا حتى الان عن « مفاتيح شخصية عبــد الناصر » في معرض حديثنا عن « عبد الناصر واتخاذ القرار . » وبذلك نكون قد استكملنا احد وجهــي الموضوع . وبقي ان نتحدث عن الظروف التي عاش

فيها وقت اصداره لقرارانه حتى نجلو الوجه الاخر . اذ لا يمكن تقييم اي قرار الا بوضعه داخل اطار الظروف التي اتخذ لمواجهتها او التي عاش فيها فاثرت عليه وتأثر بها .

فالقرار لم يكن في يوم من الايام مجرد عملية حسابية صماء ولكنه اجراء معقد اشد التعقيد . وتفسير ذلك ان اتخاذ القرار اجراء يمر بمراحل كثيرة متتابعة ومتداخلة اكثرها تحدث في المحيط المعنوي للمشكلة واقلها يجري في المحيط المادي لها ...

والجانب المادي من السهل تقديره وتحديده بدقة وربما يحتاج الى عمليات حسابية دقيقة للوصول الى نتيجة اقرب ما يمكن للصواب . ولكن الجانب المعنوي يضيف الى مشكلة اتخاذ القرار عاملين هامين : الاول منهما يتعلق بالمخاطرة والعامل الثاني هو التكهن والاستنتاج .

والمخاطرة لازمة من لوازم القرار ولا بد من التفريق بينها وبين المقامرة فللمخاطرة اسسها وقواعدها التي ربما تصيب وربما تخطىء اما المقامرة فهي مجرد ضربة حظ تتعلق بالقدر ولا تبنى على اساس من العقل والتدبر .

اما التكهن فيحتاج الى المعرفة والعلم والمعلومات الى جانب القدرة على الخيال والتصور فيكون بذلك قادرا على اختراق الضباب الذي يغلف المواقف نتيجة

للارادات المتصارعة التي لا يمكن تحديد اتجاهاتهـــا تحديداً قاطعا والمعلومات المتضاربة التي تختلط فيهـا الحقيقة بالزيف ويمتزج فيها الوضوح بالغموض .

ولنضرب مثلا واحدا نقرب به ما نقول الـــى الاذهان ...

فاذا كان الجانب المضاد مثلا لديه ٤ دبابـــات فالجانب المادي لمواجهة ذلك يبنى علـــى اساس ان التعامل سيكون فعلا مع الدبابات الاربعة ولكن الجانب المعنوي يمكن أن يجعل التعامل مع دبابتين وربمـــا ثمانية !!! اذ سوف يدخل في العملية الحسابية عوامل اخرى غير ملموسة مثل جودة الدبابة من الناحية الفنية ما مدى المدفع ، القدرة على المناورة ، السرعـــة ، درجة الرؤية المتيسرة في الضباب او الليل نتيجـــة لاستخدام الاشعة تحت الحمراء مثلا ، درجة تدريـب الافراد ، مهارة القيادة ، الروح المعنوية ، الايمـــان بالغرض ، القدرة على التصرف امام المواقف المفاجئة ... الخ ... هذه العوامل غير محسوسة ولكنها تؤثر تماما عند اتخاذ القرار . اذ لو ان صاحب القـــرار تناساها فانه سيتعامل في واقع الحال مع ظـــروف اخرى لـم يضعها في حسبانه ويصبـح قراره بذلك لا يتعامل مع واقع ويكون اقرب الى السهم الطائـــش لا يصيب هدفا ولا يحقق غرضا .

وبعد هذه المقدمة السريعة يمكن أن نتحدث عـــن

الظروف التـي عاش فيها عبـد الناصر وهو يتخـذ قراراته ...

● كان المناخ الذي ولدت فيه ثورة يوليو — تموز ١٩٥٢ يتميز بالتحالف الرهيب بين الرجعية والاستعمار واستمر الرجل الى اخر يوم في حياته يخوض معركة ضارية ضد ذلك الحلف الذي شكل قوة ضاغطـــة مستمرة أثرت على قراراته وأجبرته على ان يخــوض معركة تلو الاخرى دون أن تترك له فرصة لالتقـــاط الانفاس ...

ويقول بعض « السذج » انه كان على « عبــد الناصر » تجنب المواجهة ومفاداتها ...

ولا اظن ان الرجل كان يطلب غير ذلك اذ لــم يكن يريد حربا ولا كان يسعى الى قتال . بل حــاول جهده أن يتفاهم بالحسنى دون جدوى وأمضى السنوات الاولى للثورة في محاولاته تلك فكان يخرج من طريــق مغلق الى طريق مسدود دون أن يجد صدى لمحاولاته تلـــــك .

كان البديـــل لذلك « الاحتواء » والدخول فــي « مناطق النفـــوذ » وهذا أمر لم يقبله .

وهنا اختلطت شخصيته « الثورية » « بالظروف الضاغطة » وتفاعلت معها ورفضتها واصبح من المحتم عليه ان يتحرك ليكسر الطوق قبل أن يطبق عليه . اذ ان أخطر ما يصيب الثورة هو حالة الجمود التي تدفع

اليها او حالة الاستسلام التي تسحب الى الوقوع في حبائلهـــا .

والشيء الغريب حقيقة أن كثيرا من الاقـــلام الناقدة تحدثت كثيرا تلوم عبد الناصر على محاولاته تلك وربما تجاوزت اللوم الى حد الاتهام . ولكنها لـــم تحاول ولو لمرة واحدة ان تتحدث عن محاولات الرجعية والاستعمار مع الثورة وقائدها من يوم أن ولدت حتى تصيدتها في يونيو — حزيران ١٩٦٧ . ولم تحـــاول ولو لمرة واحدة أن تقترح البديل الذي كان على عبـــد الناصر اتباعه والسير فيه .

● ثم وجد « عبد الناصر » ضمن ما وجد مـــن « مخلفات » « مشكلة فلسطين » . فالانظمة العربية قبل ثورة يوليو — تموز ١٩٥٢ هي المسؤولة عن خلق اسرائيل « الدولة » بعد ان فشلت في مقاومة اسرائيل « الفكرة او الحلم » . فعبد الناصر لم يكن مسؤولا عن خلق المشكلة بل كانت المشكلة احدى الاسباب التي دفعته الى الثورة . وعلى اي حال فلن نستطرد اكثر من ذلك اذ لسنا في موقف نحدد فيه المسؤوليات ثـــم لم تعد هناك فائدة من البكاء على اللبن المسكوب .

وكان المؤمل أن يتعلم حكام العرب من درس ١٩٤٨ ويحاولوا ولو لمرة واحدة ان يتحدوا أمام الخطر الداهم الذي أصبح جاثما وسط الدار ولكن الكثيرين منهم راوا

ان الثورة اخطر عليهم واكثر تهديدا لبقائهم فقاموا يحاربونها بكل ما وهبهم الله من قوة وثروة .

ويقول « السذج » و « المغرضون » الذين يقيمون الاحداث الان انه كان على عبد الناصر أن يترك فلسطين في ذمة التاريخ لتتفرغ لاحوالنا ومشاكلنا وانه كان على الرجل ان يقفل عليه حدوده وبذلك يتفادى الصدام مع اسرائيل ويجنب مصر تلك الحروب التي خاضتها .

ولكن . . . هل تحرشت مصر باسرائيل حينما قامت بغاراتها الوحشية في غزة واتبعتها بغاراتها في مناطق عديدة بعد ذلك ؟ هل تحرشت مصر باسرائيل حينما انضمت الاخيرة الى بريطانيا وفرنسا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ؟

لا نقول ذلك لتبرير حروب عبد الناصر فهي حروب عادلة لا تحتاج الى تبرير اذ خاضها لكي تدفع العدوان أو هكذا كان يحاول ويتمنى . ذلك لان ابسط قواعد الامن القومي تشير الى أن « فلسطين » هي من ضرورات «الامن المصري» منذ عصور الفراعنة . ووجود دولة معادية هناك فيه تهديد قاتل « لامن مصر » .

اذن فسلامة فلسطين من ضروريات الامن المصري اذا صح هذا التعبير اذ لا يوجد ما يسمى « بالامن المصري » المنفرد عن « الامن العربي » فلا أمن لمصر دون العرب ولا أمن للعرب دون مصر .

● وكان الاستعمار يربض في كل مكن من اركان

العالم العربي من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي لتنفيذ استراتيجية « التطويق » عن طريق اقامة القواعد العسكرية على الساحة كلها ... قاعدة قناة السويس ، عدن ، منطقة الخليج ، الظهران ، الحبانية، الشعيبة ، هويلس ، بنزرت ، الجزائر ، المغرب ... كانت القواعد كالاخطبوط الذي يخنق كل حركة وطنية .
واعتبر عبد الناصر العربي — عن حق — أن معركة استقلال مصر هي جزء من معركة الاستقلال العربي فالمعركة واحدة متصلة اذ أن الامن واحد والمستقبل واحد والعدو واحد والمصير واحد . هكذا تقول لنا الخريطة وهكذا يقول لنا الواقع وهكذا يقول لنا الدين « ان القدر لا يهزل وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ولا وجود يصنعه الهباء . ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان ... ايمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا وان هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ... واستمر عبد الناصر يتحدث في « فلسفة الثورة » عن الدائرة الافريقية والدائرة الاسلاميةحديثا اخذا في الاعتبار مركز مصر على خريطة العالم . ولست ادري كيف يمكن لبلد من البلدان كتب عليه أن يكون في هذا الموقع الحيوي ان يقفل على نفسه ؟ وكيف يمكن لمصر ان تقفل عيونها حتى لا ترى

ما حولها ؟ او تجمد احاسيسها حتى لا تحس الاخطــار التي تحدق بها ؟ بل لو اننا سلمنا جدلا أن مصر اقفلت عيونها وسدت آذانها وجمدت احاسيسها فهل هذا يحول بين المتربصين وبين ان يقرعوا الابواب ويقتحموا النوافذ؟ ولو سلمنا جدلا انه بامكاننا أن ننتقص من قدرنا ومكاننا فكيف نضمن أن غيرنا سيشاركنا هذا التقييم في سبيـل سعيه لتحقيق امنه ومصالحه ؟ اننا جزء من منطقـة نعيش فيها ... والمنطقة جزء من عالم متسع تدور فيه الاحداث وتتصارع فيه الارادات ... والسياسة أخذ وعطاء ولذلك نجد ان الرجل اعطى في سخاء لثـــورة الجزائر وللمغرب ولليسار اليمني والجنوب العربي ... فأزيلت القواعد وتحررت الارادات ولذلك ضرب عبـد الناصر عام ١٩٥٦ لان « القضاء على ثورة الجزائــر لن يتم الا عن طريق القاهرة » وعادوا فوجهوا اليــه الطعنة النجلاء عام ١٩٦٧ لان « القضاء على الثـورة العربية لن يتم الا عن طريق القاهرة ايضا » .

وبالرغم من ذلك فان البعض يوجه اليه اللـوم الثقيل بعد ان مات وكان ما لاقاه من لوم ومقاومة قبـل أن يموت لم يكن فيه الكفاية . فمن قاومه قبل أن يموت ومن شرحه بعد أن مات كلاهما كان يطلب منه أن يريح ويستريح . ولكن كان هذا مستحيلا اذ لو توفرت لـه الرغبة فانه ما كان من الممكن ان تتوفر له القدرة . لان العدوان يدق الابواب وينساب من النوافذ ويتسرب من

الفجوات فلا هو يدع النائم في نومه ولا هو يدع المتيقظ يهنأ بتيقظه . فهو في حركة دائمة ونحن دائما اهدافه التي يسعى الى السيطرة عليها لابتلاعها لعلها تسد شيئا من اطماعه .

● وكان المجتمع المصري يقــع تحت ضغطيــن رئيسيين : الضغط الاول كان يتمثل في انه مجتمع بطيء النمو ، والضغط الثاني كان يتمثل في ان المجتمع كــان يعيش في حالة خلل محزن وتناقض خطير في العلاقات التي كانت تنظم حركة المجتمع .

ومن ناحية الضغط الاول وهو بطيء نمو المجتمع فانه طبقا للاحصائيات العلمية الدقيقة كان المجتمع قد وصل الى حالة ركود تكاد تكون تامة خلال اربعين سنة ما بين عام ١٩١٣ الى عام ١٩٥٣ ففي تلك الفترة كــان معدل النمو لا يزيد من المتوسط عن واحد ونصف بالمئة سنويا وهي نسبة نمو كانت الزيادة في عدد الســكان تستوعبها .

اما من ناحية الضغط الثاني فكان يتمثل في التفاوت الخطير بين الطبقات فكان واحد ونصف بالمئة مــــن السكان يحصلون على نصف الدخل القومي ، عــلاوة على ان الملكية من الاراضي الزراعية كانت قد تركزت في يد القلة المالكة التي كانت تتحكم في الاغلبية من الاجراء ثم كانت ثروات مصر ليست ملكا لابنائها فكل المرافــق الحيوية كانت في ايدي الشركات الاجنبية مثل قنــــاة

السويس والسكك الحديدية وخطوط الترام ومرافق الكهرباء والمياه والبنوك والصناعات ومساحات كبيرة من الاراضي الزراعية .

وكان العلاج تحت ضغط تلك الظروف ليس مجرد استرداد الثروات الى ملاكها الحقيقيين عن طريق التمصير والتأميم وانما كان الى جانب ذلك اضافة وتوسيع بدأها مجلس الانتاج بعد شهور من قيام الثورة ثم اشرف عليها بعد ذلك وزارة الصناعة التي انشئت منذ عام ١٩٥٦ والتي قامت تحت ظروف الحصار الاقتصادي الذي اعقب حرب السويس بوضع خطة ثلاث سنوات للصناعة مهدت لخطة التنمية الشاملة بعد ذلك والتي بلغ فيها معدل النمو زيادة سنوية قدرها ستة ونصف بالمئة واثناءها دخلت مصر مرحلة الصناعة الثقيلة رغم تعقيداتها وبطىء مردودها بهدف الاقتراب من اجل الاعتماد على النفس بقدر الامكان من جانب ولتغيير التكوين الاجتماعي من جانب اخر بنقل فائض العمالة في قطاع الزراعة الى قطاع الصناعة للتغلب على مشكلة البطالة المقنعة الموجودة في قطاع الزراعة .

● وترتب على هذا الخلل في الملكية خلل اخر في التمثيل النيابي اذ لا مندوحة ان تتكون في ظل هذا النظام المالي ديكتاتورية برلمانية تكون انعكاسا طبيعيا للسيطرة الاقتصادية . فكانت هناك مجالس نيابية يجتمع فيهما نفس الفئة المتحكمة في الارض وسوق المال . وبذلك

تكون اقطاع سياسي الى جانب الاقطاع الاقتصادي ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن تلك المجالس لم تتحدث الا نادرا عن مصالح الجماهير الكادحة وعن ضرورة تذويـــب الفوارق بين الطبقات . كانت تلك المجالس غطاء زائفا للحرية اذ أنها كانت توفر حرية الطبقة المتحكمة والحاكمة في نفس الوقت أما الحرية التي ترتبط بلقمة العيـــش فكان التحدث فيها محرما وممنوعا الى ان جاء عبد الناصر ليبدأ في تساؤله الملح عن معنى الحرية ؟ « فما هـــي الحرية بالنسبة للرجل الذي لا يجد لقمة العيش لاولاده في الليل ؟ ان الحرية بالنسبة له ليست الا ان يجد لقمة العيش لاولاده ... الحرية بالنسبة للفلاح الذي يشتغل عبدا في الارض هي أن يكون حرا ويكون سيد نفسه .. الفلاح الذي يطرده صاحب الارض من ارضه هو ومتاعه وعائلته لانه لا يطيع الاوامر ولا يقبل ان يكون رقيقا أو عبدا او خادما مطيعا ... ان الحرية عنده ان يكـــون مطمئنا على حياته ومستقبله ... والحرية بالنســـبة للعامل الذي يفصل في كل وقت والذي لم يكن له الحق في أن يقول رأيه واذا قال رأيه بجدية يفصل من عملـــه أياما ... ان الحرية بالنسبة له ان يكون مطمئنا علـــى عمله ومطمئنا على مستقبله . كان من الواضح لنا بعد الدروس التي اخذناها في السنين الماضية أننا اذا أردنا ان نقيم الديمقراطية فاننا نهدف ونسعى الـــى اقامـــة ديموقراطية سليمة لا ديموقراطية تتحكم فيها أقلية على

الاغلبية او ديمقراطية يتحكم فيها المستغلون وانما كنـا نعني ديموقراطية الشعب فالحرية لا تنفصل عن الرزق والمساواة لا تنفصل عن الحرية ولا يمكن أن يكون هناك حرية بدون مساواة ويكون هناك اناس مميزون ولهم الحق في كل شيء واناس اخرون محرومون من كـل شيء » .

وكان عبد الناصر — كما سبق أن ذكرنا في مفاتيح شخصيته قد نشأ في اسرة فقيرة وعاش الجو الـذي عاد ليتحدث عنه ويعالجه وهو في الحكم ورأى مهزلـة المجالس النيابيـة ولمس تحـكم الاقطـاع في الحيـاة السياسية . ولعله تأثر بكل ذلك حينما ألقى بثقلـه على الحرية الاجتماعية احد جناحي الديمقراطية — كما كان يقول — فنالت منه رعاية كبيرة فاقت رعايته للجناح الاخر من الديمقراطية وهي الحرية السياسية .

● وانعكس خلل الملكية على العلاقات التـي كانت تتحكم في حركة المجتمع فأوجدت تناقضا خطيرا بين الحقوق والواجبات ... فالحقوق كلها للقـادرين والواجبات كلها على الكادحين .

فالتعليم مثلا — وهو حق مشروع للجميع — كان قاصرا على طبقة خاصة قادرة على مواجهة تكاليفه . وكان العلاج وهو حق من الحقوق قاصرا على الطبقـة القادرة على دفع نفقاته وكان العمل متاحا فقط للطبقات المميزة الا الاعمال الدنيا فتركت لطبقاتها لا عن رغبـة

وزهد ولكن عن تعفف وازدراء . وكان المسكن اللائق من المناطق المحرمة التي لا يجوز للطبقات الكادحة حتى ان تفكر فيه . حتى الحذاء كان مجرد امل بالنسبة لكثير من الفلاحين والعمال الذين كانوا يهيمون في حقولهم ومصانعهم بجلابيبهم الزرقاء المشهورة وهم حفاة .

وفي الوقت الذي حرمت فيه الغالبية من حقوقها كان عليها واجبات خطيرة من المحتم ان تقوم بها ... فالتصويت في الانتخابات واجب عليها لكي توفر الغطاء الشكلي لدفع ممثلي الطبقة المتحكمة فيهم الى قاعات البرلمان ليكرسوا جهودهم لتعميق الوضع الظالم السائد . وفي نفس الوقت اقتصر دفع « ضريبة الدم » للدفاع عن الوطن على الطبقة التي كانت عاجزة عن دفع « ثمن الخلاص » من الجندية وهو يتمثل في عشرين جنيها كانت تسمى « البدلية » اي النقود التي تدفع بدل التجنيد اي في مقابله !!! وكأن شرف الدفاع عن الوطن قد اقتصر على الطبقة التي ليس لها حق التملك فيه !!! فكان التجنيد الاجباري في الواقع لا ينفذ الا على التعساء من حثالة المجتمع الذي لا يملكون ثمن الخلاص الزهيد .. وكأن الذين لا يمتلكون اي شيء هم الذين وكل اليهم أمر الدفاع عن الذين يملكون كل شيء ... !!! ثم كان على هذه الطبقة المعدمة دفع الضرائب للخزينة الخاوية. وكان الدفع يتم من « المنبع » كما يقولون . وكان «المنبع» في أغلب الاحيان جافا ليس به زاد أو ماء بينما القادرون

لا يجسر احد على الاقتراب من « منبعهم » المتضخــــم الزاخر المليء !!!

● ثم ووسط الضغوط الخارجية التيكانت تتعرض لها البلاد كان « الجيش » لا يملك عتاداً ولا سلاحا وقد حاول الرجلسد الفجوة من بريطانيا في اول الامر فتمنعت في انتظار دفع الثمن . . . وتغطية الثمن في سوق السّلاح لا يكون نقدا وعدا ولكن هناك طــرق أخرى لتســديد الحساب أغلبها ربما يمس السيادة وينقص مـــن الاستقلال . . . ولما راى الباب مسدودا حاول مـــع الولايات المتحدة الامريكية دون جدوى أيضا . . . وكانت اسرائيل ترتع على الساحة بفعل ما تريد وبريطانيا قابعة بقواتها في قاعدة قناة السويس قاطعة خطوط مواصلات القوات المصرية التي كانت موجودة في سيناء فكان العدو بذلك أمام قواتنا الموجــودة في سيناء وخلفهـا في نفس الوقت . وقام الرجل وسط كل هذه الضغوط بمعجزة « كسر احتكار السلاح » فكانت صفقة التسليح السوفيتي التي تبعتها صفقات .

وبالرغم من ذلك يتعرض عبد الناصر الى اللـــوم الذي يصل الى حد الاتهام لانه أخطأ بأخذ السلاح الذي دفع به القدر اليه . فكيف « يدنس » يده بسلاح سوفيتي حتى ولو كان « الجيش » يقف تحت رحمة العدو ليـل نهار ؟ كيف يسمح بتسرب السلاح السوفياتي حتى لو

كان الجيش اعزلا امام عدو يتسلح كيف يشاء ؟ لماذا لم يرفض السلاح « المحرم » حتى لو رفض الجميع امداده به حتى مع استعداده لدفع الثمن فورا نقدا وعدا ؟ لماذا ارتكب الرجل تلك الخطيئة ولماذا اقدم على هذا المحظور؟ لقد ارتكب الرجل ــ هكذا يقولون ــ شيئا اذا وقطف « الفاكهة المحرمة » .

● ووسط هذه المـواقف الصعبة كانت البـلاد تتعرض لمؤامرات خارجية وداخليـة وبصفة مستمـرة كل هدفها اسقاط النظام . وكان هناك اكثر من عشـر محطات اذاعة سرية توجه اليه ليل نهار وكانت الضغوط الاقتصادية التي ارتفعت الى حد الحصار الاقتصادي تلتف حول عنقه في كل وقت . ثم كانت الحروب التـي تفرض عليه حينما تفشل الوسائل الاخرى في اسقاطه تتتابع بين وقت واخر .

وكان المفروض على عبد الناصر ــ كما يقـول اللوامون ــ ان يقابل السيئة بالحسنة حتى يمحوهـا وهم لا يدرون ان الانبياء العزل لا مكان لهم في غابـة السياسة . ثم كان عبد الناصر كما قلنا ونحن نتحدث عن مفاتيح شخصيته انسانا وليس نبيا او ملاكا ... والا بالله عليكم ما هي الطريقة التى كان يواجه بها عبـد الناصر تلك المؤامرات الخارجية ؟ وما هي الطريقة التي كان يمكن ان يواجه بها عبد الناصر المؤامرات الداخلية وتعرضه المتكرر للاغتيال ؟ علما باننا نكرر ان الرجل

كان انسانا يحب ويكره ، يعدل ويظلم ، يخطىء ويصيب.

كان عبد الناصر يعيش في بحر هائج تختلط فيه التماسيح المتصارعة مع الانواء العاتية والعواصف المدمرة وهو نفس الجو الذي تعيش فيه دائما الثورات الاصيلة .

ووجد عبد الناصر نفسه بعد الانفصال في موقف صعب مع المؤسسة العسكرية بقيادة المشير عبدالحكيم عامر .

كان أهم ما شغل الثورة منذ قيامها تنظيم العلاقة بين القيادتين السياسية والعسكرية فكانت العلاقة واضحة ومحددة أيام حرب التحرير عامي ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ضد القوات البريطانية في قناة السويس ، وكانت العلاقة واضحة ومحددة في حرب السويس وحتى حدوث الانفصال فلم يكن كل شيء هادئا في كواليس قيادة يوليو عندما صدر الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ ولا عندما صدر بعده في سبتمبر — أيلول اعلان دستوري بنقل السلطة الى مجلس الرئاسة كمحاولة لايجاد قيادة جماعية بعد نجاح الانفصال . وحاول المجلس ان يدخل التوازن بين سلطات المشير عامر وبين السلطة الرئاسية المتمثلة في القيادة السياسية بعد فشل المشير أيام العدوان الثلاثي وأيام الوحدة وقد أعد قرار تحديد أختصاصات المشير بما يجعل سلطة تعيين قادة الوحدات في القوات المسلحة من مسؤولية مجلس الرئاسة وليس

من مسئولية المشير ولم يحضر عبد الناصر جلسة مجلس الرئاسة التي نوقش فيها هذا الموضوع فطلب المشير تأجيل بحثه وانضم اليه كمال حسين الذي كان قد بدأ يقترب من دائرة الظل ويبتعد عن المناصب التسع التي كان يستحوذ عليها ولكن الغالبية وافقت على القـــرار واصدرته ولم يمتثل عامر الى ذلك وخرج غاضبا وقدم قادة القوات البرية والجوية والبحرية وبعض كبـــــار القادة استقالاتهم وحدثت حالة هياج بين قادة القوات المسلحة المقربين من المشير واجتمعوا في القيادة واصروا على عودته الى موقعه .

وقد كان !!!

وادرك عامر انه يستمد سلطته من القوات المسلحة فوثق صلته بقادتها وظل يواصل العطاء والمنح لكل من يطلب واصبح للمشير اظافر وانياب . وكان من الواجب حسم مثل هذه الامور عند بدايتها ولكن اهمال ذلـــك ادى بالقيادة العسكرية لكي تشكل بروزا وورما خطيرا اصبح من الصعب استئصاله واصبحت القيادة السياسية ينقصها القدرة ـــ ولا اقول الرغبة ـــ لازالة هذا الورم وهنا اهتزت كل الامور فتغيرت طبيعة العلاقات بيـــن القيادة السياسية والقيادة العسكرية ثم اهتزت طبيعة العلاقات داخل القيادة العسكرية فهبط ميزان الكفـــاءة ليحل محله ميزان الولاء واصبح التأمين الذاتي وليس الامن القومي هو محل الرعاية والاهتمام .

وهنا يتساءل الكثيرون — وأنا معهم — لماذا لم تعالج القيادة السياسيةالموقف ، ربما يكون ذلك لعجز في القدرة بعد اختلاف موازين القوى بين القيادتين وربما تكون القيادة السياسية قدرت انه لتصحيح الاوضاع لا بد من صدام ولكنها لم تكن مستعدة لهذا الصدام الا على الارض الملائمة وفي الوقت المناسب .

ولكن يبقى سؤال قائم ! ولماذا لم تعالج القيادة السياسية الموقف قبل ان يستفحل ؟ والاجابة على السؤال صعبة وربما يرجعها البعض الى عامل الصداقة ، وربما يرجعها البعض الاخر الى تغلب عامل التوازن بين اتجاهات اعضاء مجلس الثورة القديم . والله اعلم .

● ثم جاءت النكسة عام ١٩٦٧ ليعيش عبد الناصر في ظل الهزيمة بعد انتصاراته الكبرى في معاركه السابقة وانعكس ذلك على قراراته ولا شك . اصبح الرجل أكثر حذرا وأقل اندفاعا عما قبل . كان يحسب ويعيد الحساب بأسلوب تميز بالمرونة والواقعية .

فبعد ان اجتاز قمة اليأس وخيبة الامل التي دفعته الى اتخاذ قرار التنحي في ٩ يونيو — حزيران ١٩٦٧ ابتدأ يستعيد نفسه يوم ١٠ يونيو — حزيران ١٩٦٧ حينما استجاب للرغبة الملحة في بقائه .

ووسط الحطام التي تناثرت من حوله بدأ في محاولاته لازالة آثار العدوان تحت ضغط ظروف قاسية

وشبح الهزيمة لا يفارقه لحظة واحدة وكان كل مـــا يتمناه ان يظل حيا حتى ازالة آثار العدوان ولكن انهيار حالته الصحية لم يتح له ذلك فلقي ربه قبل ان تتحقق الامال .

ولا شك بعد كل هذا الذي قلناه فان عبد الناصر واجه تحديات كبرى في الداخل والخارج على حـــد سواء . ولم يكن الرجل يؤمن بالمبدأ الاصلاحي في معالجة الامور ولكنه كان قائد ثورة ثم اصبح زعيم امة أعطتــه ثقتها في الانتصارات والهزائم على حد سواء .

ولا شك بعد كل هذا الذي قلناه فان عبد الناصر كان شجاعا الى اقصى حدود الشجاعة وهو يواجه كل الضغوط التي وجهت اليه فلم يتردد في خوض معركة تلو الاخرى حقق في معظمها انتصارات كبيرة تركـــت بصماتها في الداخل والخارج على حد سواء .

وبحكم طبيعته واجه التحديات باجراءات حاسمة وبطريقة مباشرة لا تعرف الالتواء . . . الاسود اســود والابيض ابيض بينما يغلب على الالوان في ميدان السياسة أن تكون بين بين .

كانت المشاكل الموروثة هائلة وكان يسابق الزمن . كان يريد ان يقفز في خطوات واسعة كقفزات النمر بينما يرى ناقدوه انه كان عليه أن يسير في تؤدة كالسلحفاة . . والنمر يصل والسلحفاة تصل فلم يكن هناك داعيا اذن للسرعة او التسرع .

وكلمة أخيرة عما قيل من ان قرارات عبد الناصر كانت قرارات غلب عليها « رد الفعل » ويقصدون بذلك ان قراراته كانت مجرد فورات عاطفية وانفعـــالات شخصية . وهذا قول بعيد عن الواقع .

اذ ما انضحت سياسة مصر طوال تاريخها من كافة الميادين مثلما انضحت ايام عبد الناصر ولعل السرعــة الخاطفة التي اتسمت بها ضرباته ترجع الى وضــــوح الرؤية والتحضير المسبق وقد اعترف الاعداء قبــــل الاصدقاء لعبد الناصر بهذه الميزة .

وحتى لو ذهبنا مع هؤلاء في ان عبد الناصر كــان يتخذ قراراته في نطاق « ردود الافعال » فماذا يعني ذلك ؟ انه يعني أن مصر لم تكن تبدأ احدا بالعداوة كمــا يرددون ، ويعني ان مصر اصبح لها ارادة وربما يكمن الفرق بين سياسة الدول المستقلة وسياسة الــــدول المغلوب على امرها في القدرة او العجز عن رد الفعل . بل فلا يجوز ان ننسى ان اهم قاعدة من قواعد اللعبــة السياسية في عالمنا المعاصر هي التوازن بين القــــدرة على توجيه الضربة الاولى والقدرة على توجيه الضربة الثانية ... اي التوازن بين القدرة على الفعل والقدرة على رد الفعل . بل نجد ان القدرة على رد الفعل هـــي التي تتحكم في القدرة على الفعل وليس العكس .

اذن فليس عيبا ما يقولونه عن ان قرارات عبد الناصر كانت قرارات يغلب عليها رد الفعل .

ولكن .....

هل قيامه بالثورة يحسب في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

هل اسقاط اسرة محمد علي يدخل في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

هل قانون الاصلاح الزراعي وقوانين التمصير والقوانين الاشتراكية تدخل في نطاق الفعل او رد الفعل؟

هل اقامته دولة الوحدة وسياسته العربية والافريقية وعدم الانحياز تدخل في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

هل مقاومته للاستعمار والعمل على ازالة القواعد العسكرية تدخل في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

هل بناء السد العالي ومئات المصانع والمدارس والمستشفيات تدخل في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

كل ذلك اسقطوه من حسابهم وهم يقيمون قرارات عبد الناصر وللاسف فقد سمعت لهسم بعض الاذان واطاعتهم بعض الاقلام لان من سوء حظ الامة العربية ومن سوء حظ عبد الناصر ان القدر لم يمهله حتى يتسم ازالة اثار النكسة فمات .

الباب الثالث

استراتيجية عبد الناصر لازالة آثــار العدوان

الفصل الثامن : استراتيجية عبد الناصر لازالة آثار العدوان

الفصل الثامن

استراتيجية عبد الناصر لازالة آثار العدوان

خسرنا معركة ولم نخسر حربا — ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة — ١٠٠ ٪ من اوراق اللعبة تعتمد على ارادتنا الذاتية — لا نلعب بالاتحاد السوفياتي ولا يلعب بنا — قنوات مفتوحة مع واشنطن — الخط الحرج — خط الامر الواقع — السباق بين الاختراق والاعتراض وبين القدرة على رد الفعل والقدرة على الفعل — خطة جرانيت — كلام كلام ... قتال قتال — مخلفات عبد الناصر .

حلق بي الخيال ، وانا افكر فيما وصل اليه الحال فوجدتني امام خاطر غريب وسؤال عجيب !!! ماذا لو لم يمت عبد الناصر ؟ وفكرت كثيرا في السؤال الغريب وعقدت العزم على ان يكون السؤال هو عنوان هذا الفصل ...!! ولكن سرعان ما تبين لي ان السؤال بصورته تلك سوف يحرك كثيرا من المشاعر

المتباينة والحسابات الثقيلة ...

فالكثيرون ممن سيقراون العنوان المثير ربما يغمضون عيونهم لفترة من الوقت ويرفعون اكفهم نحو السماء ويدعون الله لو ان الخيال اصبح حقيقة !! هؤلاء هم الغالبية العظمى من الواعين والكادحين من العمال والفلاحين والوطنيين وكل المنتسبين الى الحركات الثورية في كل مكان . بينما يصيب الخاطر الغريب البعض بالذعر والانزعاج وربما يلقي بعضهم بالكتاب بعيدا في غضب وهم يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم ، وربما لا يخفي البعض الاخر سخطه على الكاتب وافكاره السقيمة ، وهؤلاء هم الاقطاعيون والمستغلون والانتهازيون والمنحرفون واخرون ممن داسوا على الوفاء وتنكروا للزمالة والصداقة وغيرهم ممن لا يجدون لهم مجالا الا في كنف الاستعمار .

وقد يرزح البعض اياما تحت ثقل الخاطر المستحيل ، بل وقد يبدأ البعض وهم تحت وطأة هذا « الكابوس » بمراجعة حساباتهم وموازنة أمورهم ... فمن يدري ؟ خاصة واننا في زمن اصبحت فيه المستحيلات ممكنة وجائزة ... ويذكرني هؤلاء بقصة « نابليون بونابرت » مع الصحافة الفرنسية بعد ان فر من منفاه في جزيرة « البا » . فبمجرد ان انتشر خبر فرار « الامبراطور السابق » كانت عناوين

الصحف تدور كلها حول « هروب السفاح بونابرت » او « فرار المجرم بونابرت » !! ولكن حينما تأكد خبـــر نزوله على الساحل الفرنسي بدأت نفس الصحافـة بنفس محرريها تتحدث عن « نابليون بونابرت » دون اوصاف او القاب !! وحينما وقف على ابواب «باريس» ومعه نفر قليل من افراد « الحرس الامبراطوري » ممن عاصروا هزائمه وانتصاراته بدأت نفس الصحافة بنفس المحررين تتحدث في حماس عن « الامبراطور الـــذي عاد » !!!

فالبشر هم البشر في كل زمان ومكـان . . . !!! وحتى نتفادى تلك المشاعر المتباينة وخوفا مـــن ان نجنح الى الخيال استبدلنا السؤال الغريب بالعنـــوان الجيد . . . واعرف سلفا ان ما ساقوله سيثير مشاعر متباينة ايضا وهذا احد الصعوبات التي تقفز امام مـــن يكتب عن « العمالقة » . . . اذ يعتبرهـم البعـــض « ملائكة » بينما يعتبرهم اخرون مجرد «شياطين» ، ولو انني اعتقد ان الفجوة بين الاراء لن تكون واسعة الى هذا الحد خاصة بعد ان حصرنا حديثنا في قضية واحدة هي « قضية التحرير » والتي ما زلنا نعالجها حتى الان وبعد مرور سنوات عشر على وفاته .

فبعد النكسة مباشرة كانت « مصر » والبـــلاد العربية قد خسرت كل شيء . . . وكان « عبد الناصر » كالتاجر الذي خسر كل رأسماله في السوق . . . وفي

مثل هذه المواقف قد ينسحب بعض التجار من السوق بصفة نهائية وهم يؤثرون السلامة ؛ بينما يصر اخرون على البدء من جديد ليعودوا كما كانوا وربما احسن وافضل . وقد اصر « عبد الناصر » على ان يستعوض الخسارة الفادحة على الساحة العربية ولذلك فانه نادى من اول وهلة « اننا خسرنا معركة ولكننا لن نخسر الحرب » وان الغرض هو « ازالة اثار العدوان واعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » وان « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » . وبذلك حدد الغرض ... كما حدد وسيلة الحصول على الغرض ، واخذ يعمل دون هوادة لتحقيق ذلك ضمن استراتيجية فيها ذكاء ودهاء تحتاج منا الى مراجعة وشرح . وربما يساعدني في توضيحها انني كنت بعد « النكسة » قريبا من دائرة اتخاذ القرار . اعلم الكثير مما كان يجري ويحدث .

١٠٠ ٪ من اوراق اللعبة تعتمد على ارادتنا الذاتية

منذ اللحظة الاولى للهزيمة اوضح « عبد الناصر » ان الارادة الذاتية هي العامل الفاصل لتحديد نتيجة المعركة ... فالمعركة معركتنا ، واللعبة لعبتنا ، والاوراق اوراقنا ، ان ١٠٠ ٪ من اوراق اللعبة في

يدنا ونحن لا يجوز ان نتركها في يد الغير . فليس معقولا ان تكون ٩٩ ٪ من اوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة مثلا او في جيب الاتحاد السوفياتي !! والا فاين الارادة الذاتية للقيادة الواعية وللشعوب المكافحة ؟!

وانطلاقا من هذا المبدأ السليم اخذ يعيد بناء القوات المسلحة ، صحيح كان الاتحاد السوفياتي قد اصيب بخيبة امل كبرى في اصدقائه بعد الهزيمة الكبيرة التي منوا بها وظن الشعب السوفياتي لفترة ليست بالقصيرة ان « السلاح السوفياتي » هزم امام « السلاح الاميركي » الا ان « عبد الناصر » كان يعتقد ـ عن حق ـ انه كلما استوعبنا السلاح الذي بيدنا اكثر واسرع كلما كان الامداد بالاسلحة متناسبا مع درجة الاستيعاب .

والى جانب ذلك اتخذت عدة اجراءات لتقوية الارادة الذاتية . . . منها :

● تهيئة مسرح العمليات الذي يتسع ليشمل كل انحاء الجمهورية في حرب لم تعد تعرف واجهات بالمعنى المفهوم بعد ان كثف العدو غاراته في العمق وانشئت الطرق والمطارات والموانىء التبادلية .

● بناء مخزون استراتيجي من المواد الاستراتيجية مثل المواد البترولية والغذائية ومواد تصنيع الاسلحة والذخائر .

● انشاء الجيش الشعبي لحراسة المنشآت في

منطقة خطوط المواصلات وزيادة كفاءة الدفاع المدني لمواجهة الغارات المعادية .

● حشد الجهود العربية عن طريق المساعدات الاقتصادية العديدة واستغلال العمق العربي في اعادة التوزيع الاستراتيجي لقواتنا فقد اصبحت ميناء بورسودان مثلا في خدمة وحدات الاسطول ومطارات واد مدني مكانا لتمركز قاذفاتنا الثقيلة ومنطقة جبل الاولياء لوجود بعض الوحدات البرية الاخرى علاوة على الوحدات العربية التي كانت تقاتل جنبا الى جنب الوحدات المصرية على القناة والوحدات السورية في الجولان .

● اشعال جبهة القتال على قناة السويس ، وفي داخل اسرائيل وبصفة تكاد تكون مستمره .

● الاستمرار في خطط التنمية باقصى معدل ممكن .

لا نلعب بالاتحاد السوفياتي ولا يلعب بنا

حددت علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي على اساس اهمية وجوده داخل اللعبة لان انفراد احدى الدولتين الاعظم بالمسرح فيه الطاقة الكبرى فلص » واحد بالغنيمة ولكن اثنين يتنازعان عليها ولا يجدان فرصة الانفراد بها وقد حددت علاقاتنا مع « موسكو »

على اسس واضحة .. فهي قوة عظمى لا يمكننا ان « نلعب بها » ، ونحن دولة مستقلة لا نسمح لهم ان « يلعبوا بنا » .

وعلى ذلك فلا بد ان « نلعب معا » كفريق تلاقت مصالحه واضعين في الاعتبار الا تتعارض « مصالحنا المحلية مع مصالحه العالمية » . فلم يكن التواجد السوفياتي في بعض المناطق او الاوقات احتلالا بأي صورة من الصور بل كان يتم وفق خطط استراتيجي واع يدل على ذكاء وعمق . فعلاوة على القلق البالغ الذي يسببه هذا التواجد لدى الطرف الاخر مما يجعله في خوف من زيادته واستمراره مما يهيىء حافزا على البحث عن حل فانه يخدم اغراضا استراتيجية محلية .

وعلى سبيل المثال ، كان تواجد بعض قطع الاسطول السوفياتي في ميناء الاسكندرية وبورسعيد حائلا دون ان تقوم القوة الجوية الاسرائيلية بضربهما فتتعطل بذلك منافذنا الوحيدة التي تصلنا بالعالم الخارجي وتقطع خطوط امداداتنا التي نستورد عن طريقها احتياجاتنا الضرورية .

وكان لوجود بعض الطيارين السوفيات فائده كبرى في توفير طيارينا للقيام بعملياتهم الهجومية على العدو والقتال بالعمق. الواحد من كتاب هنري كيسنجر « سنوات البيت الابيض » صفحة ٥٧٢ «اخبرني اسحق رابين سفير اسرائيل في واشنطن يوم ٢٤ ابريل —

نيسان ١٩٧٠ ان الطيارين السوفيات يقومون بمهمات دفاعية في داخل مصر وبذلك فقد تحرر الطيـــــران المصري من واجباته الدفاعية ليركز على الهجوم على المدافع الاسرائيلية على طول القناة واصبح الســـلاح الجوي المصري اكثر قدرة على الهجوم علاوة علـــى ان اشتباك الطيارين السوفيات مع الطيارين الاسرائيليين اصبح لا يمكن تفاديه » . وكان ما يقولـــــه « رابين » يتمشى مع قواعد اللعبة الجارية كما سنرى فيما بعد .

قنوات مفتوحة مع واشنطن

ليس معنى ان الولايات المتحدة وهي احـــــدى الدولتين الاعظم قد اختـــــارت الوقوف الى جانـــب اسرائيل ضد الاماني العربية عدم فتح الحوار معها .. بل كانت هناك قنوات مباشرة رسمية وقنوات غيــــر مباشرة سرية على اسس وثيقة من التعامل ومعرفـــة واعية باجراء الحوار على مستوى الدولتين الاعظم .

كان تقدير عبد الناصر ــ عن حق ايضا كما نلمس الان ونقرا في كل صفحة من كتـــــاب هنري كيسنجر المشار اليه ــ ان « الادارة الاميركية كانت تنقسم الـــى رأيين » :

● الراي الاول : يرى الاسراع في حل النـــزاع العربي الاسرائيلي خوفا من دخول الاتحاد السوفياتي

الى المنطقة برجاله ومن هؤلاء رجال البنتاجون وعلى رأسهم « ملفين ليرد » وزير الدفاع ورجال الخارجية الاميركية وعلى رأسهم « وليم روجرز » .

● الراي الثاني : وينفرد به « هنري كيسنجر » مستشار « الرئيس نيكسون » لشؤون الامن القومي وكان يرى ان عدم حل النزاع سيجعل العرب ينصرفون عن الاتحاد السوفياتي ويتجهون الى واشنطن بعد ان يتأكدوا انه اذا كان في مقدور الاتحاد السوفياتي اعطاء السلاح فان الولايات المتحدة هي القادرة الوحيدة على اعطاء الارض . وكان عبد الناصر سيلعب على زيادة التواجد السوفياتي لتعزيز « الراي الاول » ونسف « الراي الثاني » . لانه اذا ما انفردت الولايات بالمنطقة وهي المعروفة بصداقتها الابدية لاسرائيل فانها «ستبيع وتشتري» في المنطقة كما تريد . . . لا بد ان يكون هناك « منشط » أو « حافز » أو « منافس » . هكذا كان يرى عبد الناصر في ادارته الماهرة للصراع في الفترة الحرجة التي عاشها .

الخط الحرج الذي لا ينبغي تجاوزه

هناك « خط فاصل » متفق عليه بين « الدولتين الاعظم » في ممارستهما اللعبة السياسية عليهما عدم تجاوزه خوفاً من تصادم ذري بينهما نتيجة لاختلال

التوازن او العدوان الثقيل على المصالح فضلنــــا ان نسميه « بالخط الحرج » وقد شرحت هذه النظريـــة بالتفصيل في كتابي « الامن العربي في مواجهة الامن الاسرائيلي » .

ويتحقق انسب وضع للصدام المحلي حينما تتفــق نتيجة الحسابات المحلية مع نتيجة حسابات الدولـــة الاعظم . والمسافة التي تقف عندها الدولة الاعظم مــن « الخط الحرج » في الصراع العالمي تتناسب تناسبــا عكسيا مع « الاماني القومية » فكلما قل البعد عــن « الخط الحرج » كلما زادت الاماني القومية سلامة وامنا والعكس بالعكس .

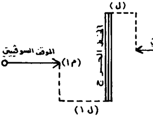
والدولتان الاعظم موجودتان ــ شئنا ام ابينا ــ في كل منطقة من مناطق العالم وقربهما او بعدهما مــن « الخط الحرج » يتفق تماما مع مصالحهما في المنطقة . وكان عبد الناصر يحاول دفع الاتحاد السوفياتي قريبا من « الخط الحرج » لان الولايات المتحدة كانت قريبـــة بالفعل منه لاعتبارها أن مصالحها متطابقة مع الوجود الاسرائيلي .

كانت وسيلته الى ذلك تتلخص في العمل علـــى زيادة ثقل الوجود السوفياتي في المنطقة حتى يكــون ذلك حافزا للطرف الاخر على ايجاد حل للنزاع العربي الاسرائيلي .

فكان تواجد بعض اطقم الصواريخ من الروس يتمشى مع هذا الاتجاه .

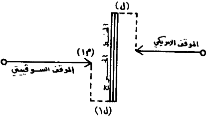
وكان تواجد بعض قطع الاسطول الروسي في نفس المياه التي كان ينفرد بها الاسطول السادس الاميركي يتمشى مع هذا الاتجاه .

وكان تلاقي القاهرة وموسكو في محاربة « الامبريالية » يتمشى مع هذا الاتجاه ولنوضح هذا الذي نقوله بالرسم التوضيحي الاتي :



شكل ١

الشكل (١) يمثل تماما موقف الدولتين الاعظم بعد نكسة ١٩٦٧ ، فالموقف الاميركي (م) يبعد عن الخط الحرج الذي لا يجوز تخطيه بمقدار المسافة (ل) والموقف السوفياتي (م ١) يبعد عن الخط الحرج بمقدار المسافة (ل ١) والمسافة (ل ١) اكبر من



شكل ٢

المسافة (ل) وترتب على ذلك ان الاماني القوميــــة لاسرائيل وجدت نفسها في درع صلب جعلها تتشبث بالامر الواقع وكان هذا هو الوضع الامثل لاسرائيل .

وكان من الطبيعي ان يحاول « عبد الناصر » تغيير الوضع ولا يمكن ان يتم ذلك الا اذا اصبحت المسافــة (ل ١) = المسافة (ل) او اقل منها ، وتم هذا كما في الشكل (٢) بعد زياراته المتعددة الى موسكو ووصول الصواريخ سام ٣ وسام ٦ باطقمها وتواجد بعـــض الطائرات بطياريها .

وسأنقل ايضا من كتاب هنري كيسنجر « سنوات البيت الابيض » فيقول « في ١٩٧٠/١/٣١ سلم دوبرين رسالة من اليكس كوسيجين الى الرئيس وفي نفس الوقت سلمت رسالة مماثلة الى كل من ويلسون وبومبيدو ، تحذر من استمرار اسرائيل في هجماتها في عمق مصر لان هذا سيجبر الاتحاد السوفياتي على النظر في امكان امداد الدول العربية بوسائل تحول دون ذلك . وناشد الدول الاربع اجبار اسرائيل على ايقاف هجماتها وقبول السلام الدائم بعد انسحاب القوات الاسرائيلية باسرع ما يمكن من الاراضي العربية المحتلة » . ويستمر كيسنجر قائلا « بمجرد التأكد من وصول الجنود السوفيات الى مصر — وهذه اول مرة تتمركز فيها قوات سوفياتية على ارض غير شيوعية — وجهت سفيرنا في موسكو جاكوب بيم لمقابلة جروميكو للوصول الى حل لايقاف النيران ، الا ان موسكو رفضت ذلك ورفضت الحد من التسلح الا بعد انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ثم قابلت دوبرونين سفيرهم في واشنطن في ١٩٧٠/٢/١٠ واخبرته بان التواجد السوفياتي في الشرق الاوسط تنظر اليه الولايات المتحدة نظرة خطيرة وانني اخترت هذه الطريقة للحوار حتى نتجنب المواجهة . واننا على استعداد للتفاوض من اجل ايجاد حل للمشكلة » ثم يستطرد « كيسنجر » فيقول : « بعد وصول الافراد السوفيات القى البنتاجون

اللوم على اسرائيل فهي التي تسببت بعنادها في ذلك واقترح الوصول الى حل سلمي ومعنى ذلك ان رجال البنتاجون يريدون لجهة اخرى أن تحل المشكلة كما حدث في فيتنام وعلاوة على ذلك فقد ايدت وزارة الخارجية اتجاهات البنتاجون بل علق نلسون على ذلك بأن السياسة الاسرائيلية هي اساس المشاكل الحالية وان الهزيمة العسكرية للعرب ١٩٦٧ هي نصر سياسي للسوفيات فأصبحوا هم اصدقاء العرب ونحن اعداؤهم » ثم يعود فيقول « في يوم ١٩٧٠/٦/١٠ قابلت دوبرونين وسألته : هل يمكن ربط انسحاب السوفيات من المنطقة مع خطة سلام شامل ؟ »

وهذه هي سياسة الترابط Linkage المعمول بها في الصراع الدولي . . . خلق مشاكل عديدة تجعل الطرف الاخر يعيد حساباته على اساس « الاخذ والعطاء » لان السياسة لا هي اخذ فقط ولا هي عطاء فقط ، هي مزيج بين هذا وذاك .

اذن حققت هذه السياسة حتى الان ومن واقع كتاب « سنوات البيت الابيض » لهنري كيسنجر : انقساما في الادارة الاميركية ، الكل عدا هنري كيسنجر يلقي اللوم على اسرائيل ، فرض القيود على ارسال الاسلحة الى اسرائيل لدرجة ان وليم روجرز صرح بانه في تقدير واشنطن فان القدرة الجوية الاسرائيلية كافية لمتطلباتها في الوقت الحالي .

خــط الامر الواقع

وكان « عبد الناصر » يركز اهتمامه على خط اخر هو « خط الامر الواقع » . وان كان « الخط الحــرج » يتأثر « بالحرارة » فلا بد من اشعاله وبصفة مستمــرة حتى يقتنع « العدو » انه فرض الامر الواقع خــــارج قدراته وحتى يجبر الدولتين الاعظم على التدخل لاطفاء النيران المشتعلة حتى لا تمتد وتنتشر فتهدر مصالحهما وهنا نصبح المواجهة بينهما امرا اكثر احتمالا .

« والردع » هو الذي يفرض الامر الواقع .. لان « الردع » هو القوة التي تردع الجانب الاخر عن القيام بأي عمل يغير من الامر الواقع . والردع يعتمد علــــى « القوة الحقيقية المتاحة » . وبذلك فان الجانب الــذي يمتلك « القدرة على الردع » في امكانه تحقيق اغراضه بالتهديد باستخدام القوة دون الحاجة لاستخدامهــــا بطريقة فعلية . وبذلك يمكنه استغلال وجود الاسلحة والتلويح بها دون استخدامها اي « بتعجيز » الطــــرف الاخر عن طريق القمع والقسر .

وفرض الامر الواقع يحتاج الى وقت لاقراره .

« والردع » هو الذي يوفر هذا الوقت .

وبذلك فان « الردع » هو « درع » الامر الواقع واداته .

وخطورة الردع فى « تأثيره النفسي » ويتضـــح ذلك من المعادلات الاتية :

الردع = التأثير النفسي + التأثير المادي = فرض الامر الواقع .

الردع ـ التأثير المادي = صدام مباشر = رفض الامر الواقع

الردع ـ التأثير النفسي = صدام مباشر = رفض الامر الواقع .

وكان لدى اسرائيل كل وسائل الردع خاصة « الذراع الطويلة » المتمثلة « في قواتهـا الجوية » خاصة بعد احتلالها لمطاراتنا في سيناء واصرار الولايات المتحدة على امدادها بكافة انواع الطائرات الحديثة .

وبالرغم من ذلـك رفض « عبـد الناصر » الاستسلام رغما عن الغارات في العمق التي كانت توجه الى اغراضنا المدنية وبذلك فقد كسر اخطر مبدأ في مبادىء الردع هو التأثير النفسي ، واخذ يشن « حرب الاستنزاف » ومعها تضرب الوحدات الفدائية داخل اسرائيل واعود فانقل من صفحة ٣٤٩ من كتاب « سنوات البيت الابيض » لهنري كيسنجر اذ يقـول « في فبراير ـ شباط ١٩٦٩ ابلغتنا المصادر الاسرائيلية ان ١٢٨٨ حادث تخريب وارهاب تمت منذ حرب الايام الستة ، منها ٩٢٠ حادثة من الحدود الاردنية ، ١٦٦ من الحدود المصرية ، ٣٧ حادثة من خط ايقاف النيران مع سوريا ، ٣٥ حادثة من الحدود اللبنانية ، ١٣٠ من قطاع غزة . وكانت خسائـر

الاسرائيليين هي ٢٣٤ قتيـــلا ، ٢٦٥ جريحا مـــن العسكريين ، ٣٧ قتلى ، ٢٣٠ جرحى مـــن المدنيين . وهذه نسبة مخيفة لدولة تعدادها ٢،٥ مليون وهـــي لا تساوي ٢٠٠٠٠ قتيل ، ١٠٠٠٠٠ جريح لدولة فـــي حجم الولايات المتحدة » . بل نجد ان هاعولام هازيـــه نشرت في العدد ١٦٤٠ بتاريخ ٢٦–٣–١٩٦٩ خطـــابا ارسلته احدى القارئات الى رئيس التحرير تقول فيه « نحن نريد مزيداً من الارض » وقد نشرت المجلة ردها على الرسالة بلسان احد الجنود الاسرائيليين ليقول : لو كنت تجلسين في المناطق المحتلة وتفقدين اصدقـــاءك القريبين الذين يموتون كل يوم بواسطة لغم او بواسطة الطلقات او بغير ذلك ما طالبت باحتلال المزيد مـــــن الارض » ونجد ان « رئيس قسم ضحايا الحرب» بوزارة الدفاع الاسرائيلي وهو يهودا نيرون يعلن عن حجـــم الخســائر للجيش الاسرائيلي حتى مايو — ايار ١٩٦٩ فيؤكد انها ٧١٣ قتيلا في حين ان اسرائيل خسرت في الحرب ٧٨٠ قتيلا .

السباق بين الاختراق والاعتراض
وبين القدرة على رد الفعل والقدرة على الفعل

وبعد ان كسر « عبد الناصر » احـــدى دعائم « الردع » المتمثلة في « التأثير النفســـــي » برفضه

« الاستسلام » واصراره على مواجهة القتال اتجــه بثقله الى كسر « الجانب المادي » ولم يكن الامــــر سهلا .

كانت محاولاته تتركز في ايجاد حالة من التوازن بين « قدرة العدو على الاختراق » و « قدرتنا علــــى الاعتراض » وكذلك بين « قدرة العدو علــــى الفعل » و « قدرتنا على رد الفعل » .

وتفسير ذلك ان الصراع المسلح هو عبارة عــن مبارزة لا تنتهي بين الاسلحة التي « تخترق » والاسلحة التي « تعترض » فمثلا اذا كانت وسيلة العــدو فــي الاختراق ــ كما كان يحدث في ذلك الوقت ــ هــي التفوق في القوة الجوية فلا بد ان يكون التركيز علــى تقوية « دفاعنا الجوي » الى ان يتيسر لنا الحصول على « القوة الجوية القادرة على الاختراق » .

وفعلا في زيارته الشهيرة الى موسكو حصــل عبد الناصر على صواريخ سام ٣ وصواريخ سام ٦ بل واطقم هذه الصواريخ من السوفيات حتى يتيسر تدريب الاطقم المصرية ، ثم بعد ذلك استغل عبد الناصر الفترة الغير مستقرة بعد قبوله « مبادرة روجرز » عــام ١٩٧٠ لنقل حوائط الصواريخ قريبا من القناة بحيث تحمــي قواتنا على الضفة الغربية وفي الوقت نفسه تستـــر وتغطي اي عملية عبور في المستقبل الى الضفـــة الشرقية .

وقد تم عبور ١٩٧٣ تحت ستار حائط صواريخ عبد الناصر الذي انشأه عام ١٩٧٠ ولم تتمكن قواتنا من التقدم خطوة واحدة ابعد من مدى حماية هذه الصواريخ بالرغم من انه كان من الممكن استخدام وسائل اخرى .

ولنرجع مرة اخرى الى هنري كيسنجر في كتابه « سنوات البيت الابيض » نجده يقول « في ١٥ اغسطس — اب ١٩٧٠ قابلني اسحاق رابين واكد ان ١٤ موقع صواريخ سام « ٢ » معززة بثلاثة مواقع صواريخ سام ٣ حركت في المنطقة العازلة وان اسرائيل فقدت ٥ طائرات فانتوم في يوم واحد » ثم يقول : « استخدم عبد الناصر مبادرة روجرز لتحريك صواريخه للامام واصبحت هذه الصواريخ لا توفر الحماية للقوات المصرية في القناة فحسب بل اصبحت قادرة على حماية اي عملية انزال مصرية على الجانب الاخر وقد انتهز عبد الناصر فترة ايقاف النيران لان الصواريخ ستكون مؤمنة ضد الضرب » ثم عاد ليكتب « في ٢٢ يوليو — تموز ١٩٧٠ بدا الروس والمصريون في انشاء خط دفاعي بمحازاة القناة وعلى مسافة ٢٠ — ٣٠ ميلا وهذا الخط يشمل ٣ مواقع سام ٢ ، ١١ موقع سام ٢ وسوف تقوى وتعزز هذه المواقع في المستقبل واصبحت قادره على حماية مواقع المدفعية المصرية التي تقصف الاسرائيليين في الشرق ال وستبر في الوقت نفسه قاعدة للهجوم المصري المنتظر .

واصبح على الاميركيين مواجهة النظرية الروسية التي تستخدم الوجود السوفياتـــــي لتعزيز نفوذها الجيوبوليتيكي فما بدا على انه وجود لمنع الاختـــــراق الاسرائيلي انتهى الى كونه وسيلة ضغط لانسحـــــاب اسرائيل » .

هذا من ناحية السباق بين «القدرة على الاختراق» و « القدرة على الاعتراض » .

فماذا كان عليه الموقف في السباق بين « القدرة على الفعل » و « القدرة على رد الفعل » ؟

كان لدى اسرائيل السلاح الرادع متمثلا فـــــي الطائرات بعيدة المدى من الفانتوم والسكاي هوك فلو امكن لمصر الحصول على الطائرة بعيدة المدى ايضـــا لبطل مفعول السلاح الرادع الاسرائيلي . وهذه نتيجة حتمية في ادارة الصراع الذي يعتمد على الردع فامتلاك القوتين الاعظم الاسلحة الذرية في مخازنهما ابطـــل استخدام القوة الذرية في الصراع وامتلاك الغـــازات السامة للاطراف المتعددة يمنع استخدامها .

ولم تكن الطائرة بعيدة المدى متيسرة لدى مصر في في ذلك الوقت رغما عن محاولاتنا المتعددة مع الاتحاد السوفياتي فلم تكن حساباته قد تطابقت مع حساباتنـــا في هذا المجال بعد ، كان يخشى بدوره دفع الامـــور باكثر مما تحتمل فينجم عن ذلك المواجهة التـــي يريـــد تجنبها .

ولكن تدخل الحظ فجأة وحدثت ثورة « الفاتح » من سبتمبر — ايلول ١٩٦٩ بقيادة الاخ «معمر القذافي » وسعى الرجل في استماتة حتى يتيسر له في اوائل عام ١٩٧٠ الحصول على صفقة فرنسية وافق عليها الرئيس الفرنسي بومبيدو وتتعلق بشراء ليبيا مائة طائرة ميراج يتم توريدها على اربعة سنوات . وتم الحصول على عدد من هذه الطائرات وضعت تحت تصرف القيادة المصرية .. واصبح لدى مصر سلاح رادع في مقدوره ضرب اسرائيل في العمق ، وكان هذا من اخطر التطورات الاستراتيجية في الصراع الدائر.

واصبحت مصر قادرة على « رد الفعل » وبذلك كسرت القاهرة بفضل سياستها العربية الجناح الاخر من معادلة « الردع » ويرجع الفضل في ذلك الى « معمر القذافي » واقول هذا للتاريخ .

وقد تحدث هنري كيسنجر في كتابه « سنوات البيت الابيض » عن ذلك اثناء حديثه عن زيارة بومبيدو للولايات المتحدة في نهاية فبراير — شباط ١٩٧٠ وكيف استقبل الرجل هو وزوجته استقبالا سيئا من العناصر اليهودية لموافقته على عقد تلك الصفقة ويقول بالنص « ولم يكن لدى ليبيا الطيارين الذين يقودون هذه الطائرات واصبح من الواضح انها اشتريت لدولة اخرى من المحتمل ان تكون مصر » . ولم يغفر بومبيدو ابدا للولايات المتحدة استقبالها السيء له مما اثر على

العلاقات بين البلدين . وبذلك اصبح لدينا القدرة على الاعتراض وتساقطت الطائرات الاسرائيلية على ضفتي القناة .. كما اصبح لدينا القدرة على رد الفعل التي يمكن ان تتضاعف في الاسابيع التالية :

وحينما تم لعبد الناصر ذلك اقدم على اعظم خطوة في ادارة الصراع وهي قبوله لمبادرة روجرز .

خطة جرانيت

وفي اثناء ذلك كانت خطط العبور تجهز في سرية وتكتم ويجري عليها التعديلات بين وقت واخر على حسب تطور التقدم في التسليح والتدريب وتجهيز مسارح العمليات . كان الغرض هو العبور ثم الوصول في مرحلة واحدة الى مناطق الممرات ، وكان الاسم الكودي للخطة هو « جرانيت »وكتجارب ابتدائية للتنفيذ اخذت قواتنا تعبر الى البر الشرقي في وحدات صغيرة في اول الامر ، ثم زاد حجمها الى « سرايا باسلحة معاونة » لتدمير العدو والحصول على معلومات عن دفاعاته والقبض على الاسرى .

وقد قامت المخابرات العامة بتصوير خط « بارليف » بحيث اتضحت معالمه تماما ، وقامت في الوقت نفسه باتمام دراسة مستفيضة عن الاعياد الاسرائيلية لاختيار احداها لبدء الهجوم اذاروي ذلك ،

كما قامت باجراء دراسات مستفيضة عن كافة الاهداف الاستراتيجية داخل اسرائيل وكيفية التعامل معهـــا ووضعت كل ذلك على الخرائط وتحت الرمل بل عملت « ماكينات » من الخشب والورق المقوي للاغراض ذات الاهمية الخاصة . وفي الوقت نفسه قامت المخابــرات الحربية بدفع دورياتها بعيدة المدى خلف خطوط العدو في سيناء لتبقى هناك اياما قصيرة او طويلة حســب الواجبات المنوطة بها .

كان عبد الناصر في لعبتـــه الكبيرة يستعـــد « للمعركة الكبرى » اذا فشلت وسائله الاخرى فـــي تحقيق الجلاء عن اراضينا . وتعمدت الا اقول « القتال » لانه لم يتوقف يوما واحدا الا بعـــد قبولنا لمبـــادرة « روجرز » .

كـــلام كـــلام .. قتـــال قتـــال

Talk Talk, Fight Fight

الحوار في الصراع الدولي ديالوج ... نقاش وتبادل افكار وصراع ارادات .

ووسيلة الالفاظ والكلمات والمذكرات جنبا الـــى جنب مع القنابل والمدافع والطائرات . هذه لهجة وهذه لهجة اخرى تكون في مجموعها لغة الحوار في الصراع المحلي او العالمي على حد سواء .

والحوار يسير في بحر هائج مليء بالاخطار والامواج المتلاطمة . الخط الحرج احد شواطئه والامر الواقع هو الشاطىء الاخر . ويتأثر الشاطىء الاول بمصلحة الدولتين الاعظم بينما يتأثر الشاطىء الاخر بمقدار اصرار القوى المحلية سواء تلك التي تصر على « رفض » الامر الواقع .

والربان الماهر هو الذي يقود سفينته وسط هذا الخضم بمهارة وشجاعة وصدق والا غرق مع سفينته الى القاع واصبح طعاما شهيا للحيتان . وعلى الربان وهو يقود سفينته ان يتذكر انه خير له ان يكون موضع رهبة وخوف في دنيا السياسة من ان يكون موضع عطف ومديح وعليه أن يكون ثعلبا لمعرفة مكان الفخاخ وفي الوقت نفسه يكون ليثا ليخيف الذئاب . وعليه قبل كل ذلك ان يكون عالما بلغة الحوار ... كلام وقتال ... فالكلام وحده لهجة احيانا يصعب عليها التأثير ... والقتال لهجة قد تؤثر وتلين وتجبر الطرف الاخر على اعادة حساباته .

وكان عبد الناصر يستخدم طول الوقت اللهجات المختلفة للحوار ... قتال لا يتوقف ومحادثات مستمرة في نفس الوقت حتى عندما قبل ايقاف النيران بعد مبادرة « روجرز » قبل ذلك لفترة ٩٠ يوما واستغلها في نقل حائط الصواريخ قريبا من القناة .

فتح قلبه « لجونار يارنغ » وظل الرجل ينتقل في المنطقة « كالمكوك » حتى تقطعت انفاسه ، وشجـــع المباحثات الثنائية بين موسكو وواشنطن الا ان « هنري كيسنجر » كان ينسفها من وراء ستار ، وشجـــع المباحثات الرباعية بين موسكو وواشنطن وباريـــس ولندن الا ان « هنري كيسنجر » كان لها بالمرصـــاد ايضـــا ....

ولكنه كان يعلم تماما ان الحل اولا في مســرح العمليات : فلا يمكن ان يتحقق السلام العادل الا بعـد تعديل موازين القوى على الطبيعة : كان لا بد لــه ان يكسب معركة الاعتراض ، وكان لا بد له انيكسبمعركة رد الفعل والقدرة عليه ، وكان لا بد له ان يغير مواقع الدولتين الاعظم من الخط الحرج ، وكان لا بد لــه ان « يقلقل » الوضع على خط الامر الواقع .

وحينئذ يمكن ان يتحرك الى « الحل » من قاعــدة وطيدة اساسها الاعتماد علــى النفس .

وقبل « مبادرة روجرز » ... وانقل من صفحـة ٣٢٧ من كتاب سنوات البيت الابيض لهنري كيسنجـر عن الاتجاه الرسمي الامريكي لهذه المبادرة « لقد كنت اعترض على قيام الولايات المتحدة بأي مبادرة في ظل التواجد السوفياتي ، وفي ظل تطرف عبد الناصر ، وفي ظل اعمال الفدائيين . وبالرغم من ذلك تقدمـت وزارة الخارجية بورقة مبادىء عامة تقرن المفاوضــــات

القادمة تعتبر مجرد اتفاق وليس بالضرورة معاهدة سلام ، وان المباحثات المباشرة ليست ضرورية في المراحل الاولى وان كان من المحتمل ان تتم في مرحلة لاحقة ، وانه على اسرائيل الانسحاب من مصر والاردن الى حدود ما قبل الحرب مع تعديلات طفيفة فقط في الحدود مع الاردن ، وفي ١٠ مارس ـــ اذار وافق نيكسون على مقترحات الخارجية على ان تقدم ورقة المباديء الى ايبان عند زيارته ثم تناقش نقطة نقطة بعد ذلك مع دوبرينين ثم تعتبر اساسا للمفاوضات الرباعية » .

وحينما مات عبد الناصر في ٢٨ ايلول ١٩٧٠ كان ضمن مخلفاته اشياء كثيرة اهمها : جيش اعيد بناؤه ، خطة جرانيت والتمرين عليها ، حائط صواريخ يستر القوات على القناة ويستر اي عملية عبور ثقيلة ، سلاح ردع متزايد هو طائرات الميراج ، جبهة داخلية سليمة خطة تنمية طموحة رغما عن الظروف الصعبة ، قناة السويس معطلة الملاحة كوسيلة ضغط ، موقف عربي مساند ، باب المندب مسيطر عليه نتيجة لمساعدته لثورتي اليمن الشمالي والجنوبي ، تنسيق كامل مع الاتحاد السوفياتي كأحد الدولتين الاعظم يوازن به الموقف الامريكي المعادي ، انقسام في الراي داخل الادارة الامريكية ، مبادرة روجرز ، موقف اوروبي متعاطف .

ولعل البعض يتساءل : لماذا كان الاعتماد على

« هنري كيسنجر » كمصدر اساسي لتقييم رد فعـــل اجراءات عبد الناصر ، والاجابة بسيطة ، ظاهــرة ، ففيه ارضاء لكل من اصدقاء الرجل واعدائه على حــد ســـواء . . .

فالاصدقاء — وهم يثقون فيه — لا يمكنهـــم ان يتنكروا لشهادة صديق . والاعداء — وهم يشكون فيه — يرحبون بشهادته على اساس ان اصدق شهـــادة هي الاعتراف بالحق من جانب الاعداء .

ولعل الكثيرين — وانا واحد منهم « يتطلعون في شوق الى الجزء الثاني من كتاب هنـــري كيسنجر » « سنوات في البيت الابيض » وفيه سيتحدث عن فترة ما بعد عبد الناصر !!

الباب الرابع

ومـــات عبـــد الناصر

الفصل التاسع : اليوم الطويل
الفصل العاشر : وقائع تحتاج الى وقفة
الفصل الحادي عشر : الوداع الاخير

الفصل التاسع

اليــوم الطويــل

ايلول الاسود — في السادسة والربع مات عبد الناصر — ترتيبات الجنازة الحزينة — بدات الاسافين وجثة الرئيس لم تخرج من منزله بعد — الجثمان فـي قصر القبة — الجلسة المشتركة بين اللجنة التنفيذية ومجلس الوزراء — التقرير الطبي عن وفاة الرئيس — اعمال المادة ١١٠ من الدستور — نائب الرئيس ينعي عبد الناصر الى الشعب .

في صيف عام ١٩٧٠ كان الوضع في الاردن قد اصبح في غاية التعقيد وقد اصبح واضحا ان صداما دمويا بين الملك حسين والمنظمات الفدائية الموجودة في الاردن أمر لا يمكن تفاديه . اذ وجد الملك حسين نفسه بمرور الوقت بين شقي الرحى : المنظمات الفلسطينية تزيد من سلطاتها داخل دولته مما اعتبره اعتداءا على سلطته الشرعية ولم يكن من السهل عليه قبول ذلك .

واسرائيل تهدد « بذراعها الطويلة » وتتوعد بالانتقام ان لم يعمل الملك على ايقاف العمليات الفدائية التي تتم من اراضيه .

وكان خوف الملك الحقيقي من المنظمات الفدائية اذ كان يعتبرها بمثابة التهديد الخطير لعرشه ولم يكن يخش في واقع الحال — في ذلك الوقت — من اي تهديد اسرائيلي اذ كان تأمين العرش الاردني احد اهـداف الاستراتيجية الاسرائيلية في ذلـك الوقت وكانت اسرائيل تعلن انها سوف تتدخل عسكريا في حالـة اي تهديد يوجه الى الوضع القائم في الاردن .

وفي يوم ١٢ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ اعلن الملك حسين الاحكام العرفية في الاردن واستبدل حكومتـه المدنية بحكومة عسكرية برئاسة اللواء محمد داود اذ كان الملك قد عقد العزم على سحق المنظمات الفدائية فـي بلاده . وما لبث الموقف ان تفجر بين قوات الملك مـن جانب والقوات الفلسطينية من جانب اخر وخـاض الطرفان معارك وحشية استخدمت فيها كـل انواع الاسلحة المتاحة .

وبدأت سوريا في حشد قواتها على الحـدود الاردنية استعدادا للتدخل في الوقت المناسب .

واعلنت الولايات المتحدة الاميركية انها قد تضطـر للتدخل في الاردن اذا هددت سوريا او العراق النظام الملكي في الاردن .

وبدات واشنطن تستعد لكافة الاحتمالات فاعلنت حالة التاهب بين بعض القوات الاميركية وتم استنفار الفرقة ٨٢ المحمولة جوا ثم امرت سفـــن الاسطول السادس بالقيام بعملية « استعراض العلم » بالتحرك في اتجاه سواحل لبنان واسرائيل ثم وجه ريتشـــارد نكسون انذارا شديدا الى الاتحاد السوفياتي يحثهـــم فيه على ردع السوريين كما اتصل بالملك حسين ليطمئنه على انه لا يقف وحده .

وقام الاتحاد السوفياتي بـــــدوره بشجـــب الاستفزازات العسكرية الاميركية ولفت نظر واشنطن الى ان تتبع الحذر في خطواتها التي تقوم بها بصـــدد الموقف المعقد في الشرق الاوسط وان اي تدخل سيزيد الموقف تعقيدا ...

الا ان تطورا غريبا حدث في الموقـــــف اذ رات واشنطن ان تستعين باسرائيل للتدخل لحسم الموقـــف في حالة توغل القوات السورية في الاراضي الاردنية وكانت « جولدا مايير » رئيسة وزراء اسرائيـــل قـــد وصلت الى نيويورك في زيارة رسمية وقرر نكســـون مفاتحتها في قراره هذا عند لقائه لها في اليوم التالـــي وكتمهيد لهذا اللقاء وافق على طلب اسرائيلي بمساعدة قدرها ٥٠٠ مليون دولار وارسال ١٨ طائرة فانتوم في موعد مبكر عن البرنامج الزمني المحدد له . وكان هـــذا الطلب يتسكع في ادراج الرئيس لفترة طويلة قبـــــل

بداية الازمة .

وفي نفس اليوم ١٨ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ تقدمت القوات المدرعة السورية في اتجاه « اربد » من الشمال الغربي من الاردن وزادت كثافة الدبابات السورية التي عبرت الحدود الاردنية في اليوم التالي وارسل الملك حسين رسالة يقول فيها « سقطت اربد في ايدي السوريين » وطالب بمساعدة الاميركيين والبريطانيين له .

وبدأ التعاون الاميركي — الاسرائيلي في رسم الخطط للتدخل وكان يمثل الجانب الاميركي هنري كيسنجر والجانب الاسرائيلي اسحاق رابين سفيرهم في واشنطن في ذلك الوقت وكان هيكل الخطة الاسرائيلية شن هجوم على القوات السورية في منطقة اربد تقوم به القوات المدرعة الاسرائيلية المتمركزة في الجولان باتجاهها شرقا وجنوبا على ان تتقدم المدرعات الاردنية من الجنوب في اتجاه اربد على ان تقوم المدفعية الاسرائيلية بتقديم المساعدة بالنيران من الضفة الغربية ويقوم الطيران الاسرائيلي بضرب اربد من الجو واتفق على ان يقوم الجانب الاميركي بالتنسيق مع الاردن مع التأكيد للملك حسين بأن القوات الاسرائيلية سوف تنسحب من الاردن بعد انتهاء العملية .

وبدأت الاستعدادات الاسرائيلية المحمومة بطريقة

علنية في الضفة الغربية للاردن وفي مرتفعات الجولان .

وفي يوم ٢٣ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ عقد مؤتمر القمة العربي بالقاهرة ومنذ بدايته كان هناك اتجاهان في الرأي : كان هناك القذافي وجعفر النميري وغيرهما يرون اتخاذ موقف حاسم من الملك حسين ، وكان آخرون من بينهم عبد الناصر يرون ان الغرض من المؤتمر هو وقف المذبحة الحالية وعلى ذلك فان اتخاذ موقف التشدد من الملك حسين فان المؤتمر بذلك يكون قد اعطاه المبرر لقطع اتصالاته بالحكومات العربية والمضي في مذبحته ضد المقاومة . وفي ٢٤ سبتمبر — ايلول سافر الى عمان وفد برئاسة جعفر النميري للوقوف على ما يجري ومحاولة تهدئة الموقف وعاد الوفد دون نتيجة واخذ الوفد يعرض نتائج مباحثاته على المؤتمر .

ويحسن ان انقل من كتاب « الطريق الى رمضان » لمحمد حسنين هيكل جانبا من النقاش الذي تم في هذه الجلسة حتى نوضح الجو الذي ساد المؤتمر . . .

الملك فيصل : اني متفق مع فخامة جمال عبدالناصر ان ذلك كله يبدو كأنه خطة لتصفية المقاومة .

القذافي : أني غير متفق معكم في الجهود التي تبذلونها واعتقد انه لا بد من ارسال قوات مسلحة الى عمان . . . قوات مسلحة من العراق وسوريا .

الملك فيصل : تريد ان ترسل قواتنا المسلحة

للقتال في الاردن ؟ هذا ليس عمليا .

عبد الناصر : اظن ان علينا ان نتحلى بالصبر .

فيصل : اظن أنه اذا كان علينا ان نرسل جيوشنا الى اي مكان فلا بد أن نرسلها لتقاتل اليهود .

القذافي : أن ما يفعله حسين ابشع مما يفعله اليهود ... والمسألة كلها اختلاف في الاسماء .

عبد الناصر : الصعوبة هي اننا اذا ارسلنا جنودا الى الاردن فان ذلك لن يؤدي الا الى تصفية بقيه الفلسطينيين وأريد منكم ان تستمعوا الى رسالة تلقيتها هذا الصباح من الاتحاد السوفياتي . انهم يطلبون منا التمسك بأقصى قدر من ضبط النفس لان الموقف الدولي اصبح دقيقا للغاية واي خطأ في التقدير يمكن أن يؤدي الى ان نفقد نحن العرب كل السمعة التي اكتسبناها خلال السنوات الثلاث الماضية .

القذافي : ما زلت معترضا فاننا اذا كنا نواجه مجنونا كالملك حسين يريد ان يقتل شعبه فلا بد ان نرسل من يقبض عليه ويضع الاغلال في يديه ويمنعه من ان يفعل ما يفعل ويحمله الى مستشفى المجانين .

فيصل : لا اظن ان من اللائق ان تصف ملكا عربيا بانه مجنون .

القذافي : لكن اسرته كلها مجانين .

فيصل : حسنا . ربما كنا كلنا مجانين .

عبد الناصر : في بعض الاحيان حينما تـــرون

جلالتكم ما يجري في العالم العربي ان ذلك ربما يصبح صحيحا واقترح ان نعين طبيبا يكشف علينا بصورة منتظمة ليتبين من هم المجانين من بيننا .

فيصل : اريد ان يبدأ طبيبك بي لاني اشك بالنسبة لما أراه في اني استطيع الاحتفاظ بتعقلي .

عبد الناصر : على اية حال . دعونا نعود الى موضوعنا الاصلي . اني اقترح ان يصدر على الفور بيان باسم الرئيس نميري يقول ان الملك حسين قطع للوفد عهدا بانهاء القتال .

القذافي : الملك حسين لن يتراجع ما لم يحس بخنجر فوق عنقه .

ووسط كل هذا الذي يجري كان اللواء محمد داوود رئيس الحكومة الاردنية الذي عينه الملك حسين خلفا لعبد المنعم الرفاعي لمواجهة الموقف في القاهرة واذا به يعلن استقالته لان « الحكومة العسكرية التي شكلت برئاستي في الاردن حملت بما لا ذنب لها فيه ولم يكن بيدها من أمر توجيه الامور شيئا وانه يريد الان ان يفسح المجال لتشكيل حكومة وطنية تستطيع ان تعيد السلام الى الاردن » .

وانتهى الموضوع كله حينما شن الملك حسين هجوما شاملا ضد القوات السورية محدثا بها خسائر فادحة واخذت قاذفاته من طراز هوكر هنتر تقذف المدرعات السورية وهي منسحبة من الشمال وحينما

تأكد الملك حسين من سيطرته التامة على الموقف قبل الدعوة في ٢٧ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ لحضور مؤتمر القمة في القاهرة ووقع على اتفاق مع ياسر عرفات على وقف فوري لاطلاق النيران وانسحاب كل قوات الجيش وقوة المقاومة من كل مدينة من الاردن مساء ذلك اليوم.

كان عبد الناصر طوال هذه الازمة يعيش فـي انطابق الحادي عشر في فندق « النيل هيلتون » وبعد أن وقع الاتفاق بين الملك وابي عمار يوم ٢٧ قرر العودة الى منزله في منشية البكري لينام مبكرا اذ كان عليه في اليوم التالي توديع المسافرين من الملوك والرؤساء .

وفي اليوم التالي ٢٨ سبتمبر — ايلـول ١٩٧٠ ذهب الى مطار القاهرة الدولي لتوديع الملوك والرؤساء وفي اثناء توديعه لامير الكويت شعر بأنه غير قادر على الوقوف وطلب سيارته لتقله من حيث يقف لانه اصبح عاجزا عن السير اليها وركب السيارة وهو يجر رجليه وطلب ان يحضر الاطباء .

وفي الثالثة والنصف كان قد وصل الى منزلـه ليجد قرينته واولاده في انتظاره على مائدة الغذاء ولكنه اتجه مباشرة الى حجرة نومه في الطابق الثاني .

وبدات محاولات الاطباء اليائسة دون جـدوى . كانت الازمة القلبية اثقل مما ينفع معها اي دواء . وفي السادسة والربع مات عبد الناصر .

بزغت شمس ٢٨ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ وكنت

في ذلك الوقت وزيرا للدولة لشؤون مجلس الوزراء .
كان علي ان احضر بعض الاجتماعات العاجلة في الصباح أما بعد الظهر فكان علي ان امر على مستشفى المعادي حوالي الخامسة بعد الظهر للاطمئنان على حرم المرحوم فاروق حمد الله عضو مجلس الثورة السوداني والذي أعدمه النميري بعد ذلك في صيف عام ١٩٧١ كما كان علي ان ازور الاخ سعد صباح وزير الدفاع الكويتي زيارة عمل في منزله بالزمالك الساعة الخامسة والنصف وفعلا ذهبت الى الزيارتين ولذلك لم اكن حاضرا وقت وقوع الحدث الجليل .

واثناء مروري على منزل العائلة وكانت الساعة حوالي السابعة اخبروني ان رئاسة الجمهورية طلبتني عدة مرات ويرجو المتحدث ان اتصل به في رقم هاتف تركه بمجرد وصولي . وطلبت الرقم ولما عرف المتحدث اسمي صرخ وهو يبكي وينتحب « انت فين ؟ تعالى فورا ... الريس مات ، الريس مات » . وكان الرجل يكرر العبارة بعد ان القيت سماعة الهاتف من يدي وكأنها افعى لدغتني ... وجريت لا الوي على شيء . لم اكن اصدق ما سمعت .

وحينما وصلت منزل « الريس » دخلت من فوري حجرة الصالون التي اعتاد أن يستقبلنا فيها ووجدت هناك السادة انور السادات ، حسين الشافعي ، وعلي صبري ، ومحمد فوزي ، شعراوي جمعة ،

محمد احمد ، سامي شرف ، والليثي ناصف ، محمد حسنين هيكل ... وبعض افراد الحرس الخاص .

كان الحزن يخيم على الجميع ... حزن صامت من البعض ... وبكاء من اغلب الحاضرين .

ولم يكن من السهل فتح اي موضوع للتحدث فيه .

وبدا البعض منا يثير اسئلة من تلك التي تثار في هذه المناسبات ...

واتفق الراي في هذه الجلسة على الاتي ...

● ان تشيع الجنازة أول اكتوبر — تشرين اول ١٩٧٠ .

● ان يذيع السيد انور السادات بيانا على الشعب العربي بالحدث الاليم .

● ان يتم اجتماع عاجل لاعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء في قصر القبة الساعة العاشرة مساء .

● تتكون لجنة برئاسة الاخ محمد احمد لتنظيم مراسم واجراءات الدفن .

● تبدأ الجنازة من الازهر الشريف حيث نادى عبد الناصر ايام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ من فوق منبره « سنقاتل . سنقاتل . سنقاتل » .

● نقل الجثمان فورا من منشية البكري الى قصر القبة .

وقمت بصفتي وزيراً للدولة لشؤون مجلس الوزراء بإخطار مكتبي للدعوة إلى الاجتماع.

وبعد أن فرغت من ذلك مباشرة ارتفع صوت حرم الرئيس وهي متعلقة بجثمانه الذي حمله الحرس من الدور العلوي إلى الدور الأسفل لنقله بواسطة سيارة الاسعاف المنتظرة على الباب الداخلي.

واستغرقت هذه العملية بعض الوقت ووقفت مع شعراوي جمعة وسامي شرف في الحديقة ووقف بجوارنا محمد حسنين هيكل يروح جيئة وذهاباً وهو يردد «مش معقول، مش معقول».

ويقول حسن التهامي في مذكرات نشرت له في الاهرام ـ على ما أظن ـ أنه حينما رآنا هكذا نقف في الحديقة أيقن أننا نتآمر ضد السادات ثم يستدرك ليقول «ودخلت من فوري لأخبر السادات بأن شعراوي جمعة وسامي شرف وأمين هويدي يتآمرون ضدك، وعليك أن تضرب ضربتك قبل فوات الأوان». قائلا ان الرئيس السادات قال له «ليس هذا وقت الكلام». لقد حدث هذا باعتراف الزميل حسن التهامي قبل ان تخرج جثة الرجل العظيم من المنزل ولما يمضي على موته إلا ثلاث ساعات!! ولا حول ولا قوة إلا بالله ولست أدري حتى الآن كيف وصل الزميل التهامي الى هذا الذي وصل إليه؟ كيف يعرف الرجل ما كان يجري

بمجرد مروره هكذا في الحديقة علما بأنني أؤكد للزميل ان هذا لم يحدث على الاطلاق . كانت مجرد الكلمات العادية لا تقوى على الخروج من فم الانسان وكان التفكير مشلولا لا يقوى على مثل هذه الظنون . وانني احسده تماما على قوة اعصابه التي مكنته من هذا التصور في مثل هذا الموقف العسير !!!

ثم هناك سؤال اخر : اذا كان الزميل المحترم قد اوقع على هؤلاء هذا الاتهام الغليظ فكيف يطاوعه ضميره — وهو رجل دين وتقوى — الا يتأكد قبل ان يقطع بالظن وهو يعلم ان الله يقول « يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة » ؟! ثم كيف يطاوعه ضميره — وهو الرجل الذي انصرف الى التقرب الى الله — بأن يقبل ان يكون عضوا ايسر في المحكمة التي حاكمت هؤلاء ضمن اخرين فيما سمي بأحداث ١٥ مايو — ايار ١٩٧١ خاصة وانه اتهم فعلا دون ان يتحقق واصبح طرفا في الموضوع ؟!!

وهذا يجعلني اشك كثيرا في انه اخبر الرئيس السادات بهذا الاتهام والا ما كان الرجل قد عينه عضوا في محكمة تحاكم افرادا قطع مسبقا بأن بعضا منهم مذنبون !!!

وعلى اي حال فلا فائدة من الاطالة ولكنني اعود فأكرر ان هذا ظن باطل وانه لم يحدث لان كل همنا كان

منحصرا في المصيبة التي وقعت على راسنا فجـــأة ودون انذار !!!

سامحه الله وسامح غيره وكلنا يعلم ان اللـــه شديد العقاب .

وفتح الباب الخارجي على مصراعيه ووضـــع الجثمان الطاهر في عربة الاسعاف وتبع عربة الاسعاف عربتان او ثلاثة كنت في احداها مع الزميلين شعراوي جمعة وسامي شرف واخذ الموكب الحزين طريقه الى قصر القبة ...

وكانت هذه اخر مرة تطأ فيها قدماي منزل عبـد الناصر في منشية البكري .

كانت الشـوارع هادئة فلم يكن الخبر قد اذيع بعد ... ولم يكن هؤلاء الذين يسيرون في الشوارع الموصلة الى القصر يعلمون ان الموكب يحمل اغلى من في مصـــر كلها ولم يكن هؤلاء يعلمون بالكارثة التي حلت وبالحادث الجلل الذي وقع .

وحمل الجثمان وسط نحيب الضباط والجنـــود الذين تجمعوا وهم لا يصدقون ما يحدث امامهم الـــى غرفة « العيادة » بالقصر حيث وضع جثمانه علـــى السرير الوحيد بالغرفة وقد غطى بملاءة بيضاء . ووقف على الباب حراس بأسلحتهم .

وجهزت الثلاجة الخاصة بالقصر وحينما تم ذلـك نقل الجثمان اليها ليبقى هناك حتى يوم تشييع الجثمان

الى مثواه الاخير في جامع عبد الناصر بكوبري القبة حيث كانت قيادة الجيش التي سقطت في يد قوات الثورة يوم ٢٣ يوليو ــ تموز ١٩٥٢ .

ويقول الاخ الدكتور صلاح هدايت وزير البحث العلمي السابق انه اخذ صورة وجه عبد الناصر على نوع خاص من « الجبس » حتى يحتفظ بملامحه الحقيقية عنده ولست ادري هل ما زال يحتفظ بها حتى الان .

ولم يبق امامنا الا انتظار عقد اجتماع المجلس المشترك الذي سيحضره كل من اعضاء اللجنةالتنفيذية العليا ومجلس الوزراء .

وكانت الاذاعة والتلفزيون قد قطعا برامجهما العادية واقتصرتا على اذاعة القرآن الكريم ... وبدأ الشعب يحدس ويخمن عما وقع ولكن لم يخطر ببال احد ان آيات الله كانت تتلى على روح عبد الناصر بعد أن فارق الحياة !!!

وتم عقد اجتماع مشترك لاعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء في قاعة الاجتماعات الموجودة بقصر القبة وهي القاعة التي كان يعقد فيها عبد الناصر اجتماعات المجلس بصفة دائمة .

وكان كثير من الوزراء في ملابس الميدان اذ كانوا قد رجعوا من فورهم من الجبهة على قناة السويس فقد كان الوزراء ــ كل فيما يخصه ــ يذهب لزيارة الجبهة بين وقت واخر لحل المشاكل على

الطبيعة . ولم يكن بعض هؤلاء قد علم بالحادث الجلل بعد . وانفجر اغلب الوزراء في البكاء وكانت علامـــات الحزن والاسى وربما الضياع قد ظهرت على وجوهنـــا جميعا .

وجلس الوزراء كل في مكانه وترك مكان الرئيس الراحل شاغرا لم يجلس فيه احد .

كان جسد الرئيس موضوعا في غرفة « العيادة » بقصر القبة على خطوات معدودة من اجتماع المجلـــس بعد أن تم نقله من منزله « بمنشية البكري » ولم يكن قد تم نقله الى ثلاجة القصر في انتظار تشييع الجنـــازة بعـــد .

وتولى السيد انور السادات « نائب رئيـــــــس الجمهورية » رئاسة الجلسة .

وبدأ في تبليغ الاعضاء تفصيـــــلات ما حـــدث والذهول مخيم على الجميع .

وبدأ حسن التهامي وزير الدولة التعليق باتهـــام صريح للهيئة الطبية المشرفة على علاج الرئيس متهمـــا اياها بالتقصير والاهمال . واستدعي الدكتور «منصور فايز » على الفور ليدلي ببيان تفصيلي عما حـــــــدث واستغرق بيان « الدكتور فايز » حوالي ربع ســاعـــة انهاه بقوله « لقد نفذت ارادة الله ولم تكن هناك قـــوة تحول دون ذلك . ان المستحيل عمل من اجل الرئيـــس ولكن علينا ان نؤمن بأنه لا راد لقضائه » . وانصــــرف

الرجل النبيل والحزن يكاد يعتصره وهو لا يقوى على السير .

ثم عاد انور السادات ليتحدث عن الهيكل العام لتشييع الجنازة .

وحينما اراد الانصراف على عجل ليذهب الى مبنى الاذاعة والتلفزيون بشارع « ماسبيرو » ليلقي بيانه على الشعب اثار لبيب شقير بحكم رئاسته لمجلس الامة في ذلك الوقت موضوع السلطة بعد وفاة الرئيس الراحل وقال الرجل بالحرف الواحد « ان المادة ١١٠ من الدستور تنص على انه في حالة استقالة الرئيس او عجزه الدائم عن العمل او وفاته يتولى الرئاسة مؤقتا النائب الاول لرئيس الجمهورية ثم يقرر مجلس الامة بأغلبية ثلثي اعضائه خلو منصب الرئيس ، ويتم اختيار رئيس الجمهورية خلال مدة لا تتجاوز ٦٠ يوما من تاريخ خلو منصب الرياسة .. وتطبيقا لهذا النص الدستوري اقترح ان يتولى الرياسة المؤقتة السيد انور السادات » .

والتفت اليه السيد انور السادات وهو يهم بمغادرة قاعة الاجتماع قائلا « ليس هذا هو الوقت المناسب لمثل هذه الاحاديث وعلى اي حال اعملوا دراسة دستورية عن هذا الموضوع » . اذ كان من راي سيادته الذي كان يصر عليه خلال الايام التالية الا يتولى الرياسة الا بعد اتمام ازالة آثار العدوان .

وئيس صحيحا ما قاله البعض من انه كان هنـــاك مناورات او تردد في اعمال نص الدستور في تلك الليلة وما تلاها من ايام اذ كان الجميع قد اصروا على ان تنقل السلطة بسرعة وبالطريق الدستوري الذي اعتـــادوا ان يحترموه من قبل اذ ان الجميع كانـــوا يشعرون ان العالم كله ينظر اليهم ويحسب عليهـــم تصرفاتهـــم وخطواتهم بعد رحيل الزعيم .

ولذلك بادر رئيس مجلس الامة بعد انتهـــاء الاجتماع مباشرة الى اعلان النص الدستوري الـــى مندوبي الصحف والاذاعة والتلفزيون مضيفا ان السيد « رئيس الجمهورية سيحضر في اليوم التالي اجتماعا مشتركا للجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء فـــي الساعة ١٢ ظهرا بالقصر الجمهوري بالقبة » .

وفعلا نشرت كل الصحف نص التصريح في اليوم التالي واذاعته الاذاعة والتلفزيون وتناقلته كافـــة وكالات الانباء .

وفي الساعة الحادية عشرة الا خمس دقائـــق من ليلة ٢٨ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ وجه انور السادات بيانا نعى فيه لالامة العربية ابنها وبطلها وقائدها .... قـــال :

« فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الامة العربية ، وفقدت الانسانية كلها رجلا من اغلى الرجال

واشجع الرجال واخلص الرجال ، هو الرئيس جمـال عبد الناصر الذي جاد بأنفاسه الاخيرة في الساعـة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجـب ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بينما هو واقف في ساحـة النضال يكافح من اجل وحدة الامة العربية ومن اجـل يوم انتصارها .

« لقد تعرض البطل الذي سيبقى ذكره خالدا الـى الابد في وجدان الامة والانسانية لنوبة قلبية حادة بدت اعراضها عليه في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر . وكان قد عاد الى بيته بعد انتهائه من اخر مراسـم اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي انتهـى بالامس في القاهرة ، والذي كرس له القائد والبطل كل جهده واعصابه ليحول دون مأساة مروعة دهمـت الامة العربية .

« ان اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكـي العربي ومجلس الوزراء وقد عقدا جلسة مشتركـة طارئة على اثر نفاذ قضاء الله وقدره لا يجدان الكلمات التي يمكن بها تصوير الحزن العميق الذي المبالجمهورية العربية المتحدة وبالوطن العربي والانساني ازاء مـا اراد الله امتحانها به في وقت من اخطر الاوقات .

« ان جمال عبد الناصر كان اكبر من الكلمات وهو ابقى من كل الكلمات ولا يستطيع ان يقول عنه غيـر سجله في خدمة شعبه وامته والانسانية مجاهدا عـن

الحرية ، مناضلا من اجل الحق والعدل ، مقاتلا من اجل الشرف الى اخر لحظة من عمره .

« ليس هناك كلمات تكفي عزاء في جمال عبد الناصر .

« ان الشيء الوحيد الذي يمكن ان يفي بحقه وبقدره هو ان تقف الامة العربية الان كلها وقفة صابرة صامدة شجاعة قادرة حتى تحقق النصر الذي عاش واستشهد من اجله ابن مصر العظيم وبطل هذه الامة ورجلها وقائدها .

« يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي .

« والسلام عليكم ورحمة الله » .

وكان هذا اليوم الطويل الحزين يوم ٢٨ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ يوافق ليلة « الاسراء والمعراج » كما كان يوافق يوم انفصال الاقليم الشمالي عن الاقليم الجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة .

ويا للمصادفة العجيبة !!!

الفصل العاشر

وقائع تحتاج الى وقفة

رفض تشييع الجنازة من الأزهر - استقرار الراي على ان تشيع الجنازة من الجزيرة — بدات وفود المعزين في الوصول — اجتماع للبت في موضوع ايقاف اطلاق النيران وحقيقة ما تم فيه — حقيقة ما تم في اجتماع مدينة نصر — بعض الجهود تهز الصورة والجثمان لم يشيع بعد .

ما زلنا نتحدث عن اليوم الطويل الحزين . وكنا قد توقفنا عند القاء بيان السيد انور السادات الذي وجهه الى الامة العربية وذلك بعد انتهاء الاجتماع المشترك لاعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء .

وانصرف كل الى حال سبيله .

ولعلنا نذكر أنه كان قد تم الاتفاق على تشييع الجنازة من الازهر الشريف وتوجهنا الى هناك حوالي الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٩ سبتمبر — أيلول

١٩٧٠ . كان الموجودون هناك شعراوي جمعـــة وسامي شرف وامين هويدي ومحمد احمــد وحســن طلعت مدير المباحث العامة واخرون .

وقطعنا الميدان جيئة وذهابا نحاول ان نتصــور سير الجنازة وكيف يكون .

وهنا القى رجال الامن برايهم القاطع في عــدم صلاحية المكان لتشيع الجنازة ولم تفلح الاراء المضادة لاثنائهم عن القرار الذي وصلوا اليه ...

فالميدان مفتوح تصب فيه شوارع وطرق كثيرة ولذلك فانه من المستحيل السيطرة على سيل المعزين المنتظر ثم الشوارع هناك ضيقة لن تسع لكثافــة عربات الملوك والرؤساء ووفود المعزين ، والمنــازل قديمة لن تتحمل ضغوط الحشود المنتظرة علاوة على ان كارثة ستحدث اذ من عادة السكان أن يتجمعوا في المنازل المطلة على الموكب ولن تتحمل المنازل القديمــة من سيتجمعون فيها .

واما هذه الاراء المعقولة اخذ المجتمعون يقلبون الامر من جديد واخيرا اتفق الجميع على ان يبـــدأ في تشييع الجنازة من مبنى « مجلس الثورة » بالجزيرة فاهمية المكان التاريخية لا تحتاج الى تعليق عــلاوة على انه مكان مقفول نسبيا اذ يمكن التحكم في الكباري والجسور التي توصله بشاطىء النيل اذ يصبح مــن السهل اقامة الاسلاك الشائكة وحشد القوات واذا

اضطر الامر يمكن فتح الكباري فيتعذر على تجمعـات البشر ان تقتحم المكان المخصص لتشييع الجنازة .

ووافق الجميع على المكان المختار وترك لــــلاخ محمد احمد السكرتير الخاص للرئيس الراحل عمـل باقي الاجراءات ووضعنا ما يمكن ان نبذله جميعا مـن جهد تحت تصرفه . وكانت الشمس قد ظهرت فــــي الافق من جديد حينما انصرفنا الى منازلنا لتغيير ملابسنا واستئناف العمل لمواجهة ما أمامنا من مسؤوليات .

وفي هذا اليوم بدأ الرؤساء وأعضاء الوفـــــود في الوصول للاشتراك في تشييع الجنازة .

وبدأت عدة اتصالات مع أعضاء الوفود ورؤسائها في الفنادق التي ينزلون بها .

وقد تم اجتماع مساء يوم ٣٠ سبتمبر — ايلول ١٩٧٠ في مكتب وزير الحربية الفريق محمد فـــوزي بكوبرى القبة حضره كل من محمود رياض وزيـــــر الخارجية وشعراوي جمعة وزير الداخلية وحافـــظ اسماعيل رئيس المخابرات العامة وسامي شرف وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ومحمد حسنين هيكل وزير الارشاد وأمين هويدي وزير الدولة .

كان الغرض من الاجتماع هو الوصول الى قرار بشأن تجديد قرار وقف اطلاق النيران الذي كان ينتهي في ٩ نوفمبر — تشرين ثاني ١٩٧٠ والذي كانت مصر تبلته بعد موافقتها على مبادرة روجرز .

ويقول هيكل في كتابه « الطريق الى رمضان » بهذا الخصوص « لم يكن التوصل الى قرار في هـــذا الامر سهلا وكان شعوري أن علينا أن نمد وقف اطلاق النار لاسباب سياسية بحت . صحيح ان الاستعداد لعملية جرانيت ١ كانت تمضي في طريقها ولكن مـــن الذي كان يستطيع في ذلك الوقت ان يتحمل مسؤولية اصدار الامر بتنفيذها ؟ كان اليوم انذاك اخر سبتمبر ــ ايلول وكان لا بد لمن سيختار رئيسا جديدا ان يثبت في منصبه باستفتاء عام يستغرق الاعداد له معظـــم شهر اكتوبر ــ تشرين اول . وليس من الانصاف ان نتوقع منه اصدار الامر ببدء الحرب ولما تمض عليــه في منصبه الا بضعة ايام . ثم هل من الانصاف ان نزج بالبلاد على الفور في معركة وهـــي لا تزال ممزقـــة بالحزن ؟ وهكذا اعلنت انني في جانب مد وقف اطـــلاق النار . وتحدث البعض مؤيدين الاجراء العاجل وخطر لي أن خير وسيلة لحسم الموضوع هـــي سماع رأي الرجل المحترف . وتحدث الفريق فوزي وقال ما يفهم منه ان مصر العليا أي الصعيد لم تستكمل شبكـــة الصواريخ فيها بعد . وسألته : قل لي .. هل انـــت مستعد من الناحية العسكرية المحضة لاستئنـــاف القتال ؟ قال : انا جندي واذا صدر امر مكتوب الـــي فاني سأنفذ ما تطلبه مني القيادة السياسية . وكان ذلك غريبا اذ لم يحدث طوال حياة عبد الناصر ان طلب

الفريق فوزي اية اوامر مكتوبة وقلت : ليس ذلــــك بالضبط هو الجواب على سؤالي . السؤال هو : هل يناسبك من الناحية العسكرية أن تبدأ القتال علـــى الفور ام انك تفضل ان يتاح لك مزيــد من الــوقـــت للاستعداد ؟ ورد على الفور : اذا منحت فرصـــــة شهرين اخرين فانني اظن ان موقفي سيكون احسن . ستكون بطاريات الصواريخ في مصر العليا قد استقرت في مواقعها وسأشعر عندئذ بمزيد من الامن . وقلت : اظن أن في هذا ما يجيب على تساؤلنا واذا كان الجيش يرى أن من الافضل ان تتاح له فرصة شهرين اخرين فخير وبركة . والفرق ليس كبيرا بين شهريـــــــن وثلاثة واظن أن علينا ان نوصي بمد وقف اطلاق النيران فترة ثلاثة شهور أخرى . وقد احتج بعض الحاضرين بان هذه طريقة مفاجئة بلا داع لانهاء المناقشة . لكــن الحقيقة انه لم يكن بينهم من كان مستعدا للمضي فـــي المناقشة في الاتجاه المعارض » .

وانتهى كلام محمد حسين هيكل . ولكن لنا وقفة طويلة أمام ما كتبه صراحة وما تركه يسقط بيـــــــن السطور لاعطاء ايحاء معين ربما تطلبه الموقف حينمـــا كتب ما كتب . ولست أعلق على ما قال تلبية لما ذكره في مقدمة كتابه من انه سوف يكون من « أسعد الناس لو ان احدا قال لي انك كتبت كذا وكذا .. ولكـــــن الحقيقة كانت كذا وكذا .. ولو أنني اقتنعت لسجلت

اقتناعي ولتراجعت عما كتبت شاكرا ومقدرا لشجاع من الحقيقة انار امامي ما كان شاحبا او معتما » ولكن تعليقي نابع من عقيدة تأصلت في النفس تؤمن بأن الانسان اما ان ينطق بالحق الا فالصمت افضل .

وقبل التعليق أطرح النقاط التالية :

● فلا اظن ان تصحيح واقعة او وقائع « بصراحة » يمكن ان يغير من علاقة قامت بين هيكل وبيني اساسها الاحترام المتبادل رغما عن ندرة اللقاء .

● ولا اظن في الوقت نفسه ان احدا يمكن ان يصنفني على حساب مجموعة او شخص . فلست واحدا ممن اسماهم « هيكل » بمجموعة ١٥ مايو — أيار . وهيكل نفسه يعرف ذلك . الا انني بالرغم من اعتذاري عن الاشتراك في الوزارة منذ نوفمبر — تشرين ثاني ١٩٧٠ ، وبالرغم من اعتزالي العمل السياسي وتفرغي لكتابة كتابين عن « كنت سفيرا في العراق » و « كيف يفكر زعماء الصهيونية » في وقت واحد الا انني وجدت نفسي وقد اعتقلت مع الاخرين ، وتنقلت في سجون عديدة مع الاخرين ، وحقق معي على اشياء لا اعرف كنهها حتى الان مع الاخرين ، ثم حكم علي امام نفس المحكمة التي حاكمتهم .. ولا اقول هذا تنصلا فليس هذا من عادتي ولا تباعدا فليس هذا من شيمتي ولكنها هي الحقيقة التي لم يطاوعني قلبي

ان اقولها امام المحقق حتى لا تفسر تفسيرا خاطئــــا او تترجم ترجمة بعيدة عن المقصود .

وليس معني هذا انه لا تربطني بالكثيرين منهــم صداقات عزيزة .

معنى كلامي هذا ان حديثي حديث رجل محايــد يقدم شهادته للتاريخ . وهناك فارق كبير بين الشهادة الخالصة لوجه الله وبين الادعاء على الغير او الدفاع عن النفس .

● أن كل ما كتب حتى الان عن تلـــك الفتــرة كتب من وجهة نظر واحدة بالرغم من اختلاف وربمــا تناقض من كتبوا عنها ولكن الظروف التي كتبوا فيهــا وحدت بين الاتجاهات والاهــداف . وهذا ليــــس شأني . ولكن ما اهتم به هو أن كل ما كتب لم يحاول ان يفرق في عدالة بين الاشخاص والمواقف ولا بيــن الحقيقية وبين ما حتمته الظروف .

● أؤكد أنه حينما تم عقد هذا الاجتماع كان قــد تقرر وبصفة قاطعة الخطوات الدستورية لنقــــل السلطة ووافق عليها السيد أنور السادات . وكان قد تم تحديد تواريخ عقد اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا واللجنة المركزية ومجلس الامة وموعد اجراء الاستفتاء على رئاسة الجمهورية بدقة كاملة لقطع خط الرجعة على اي محاولات تحاول الصيد في الماء العكر . ولعل هذا يلقى شعاعا من الحقيقة على الظلال الكثيفة التي

تركتها كلمات الاخ هيكل هنا وهناك .

وبعد نقاط النظام هذه نوضح الاتـــي بخصوص الناحية الموضوعية ...

● فلم يكن الاخ هيكل هو الشخص الوحيـــد الذي سيطر على هذا الاجتماع كما يبدو واضحا مـــن حديثه : فهو الوحيد الذي تكلم ، وهو الوحيد الـــذي وجه المؤتمر وجهة خاصة ، وهو الذي افتتح المؤتمـــر ثم هو الذي انهاه ، ثم هو الذي استجوب وزيـــر الحربية وهو الذي قدم التوصية وهو الذي حســـم المناقشة بعد ذلك !!! وتصوير الموقف بهذه الصورة امـــر غير مقبول وغير مطابق للواقـــع . فالموضـــوع متشعب النواحي متعدد الاجناب فكانت له جوانبــه السياسية علاوة على جوانبه العسكرية خاصة تلــك التي تتعلق بتجهيز مسرح العمليات . وكل من الحاضرين كانت له اراؤه ونصائحه .

● لم يكن هناك خلاف على الاطلاق بين اعضـــاء المؤتمر على ضرورة مد ايقاف النيران لنفس الاسباب التي اوضحها هيكل في كتابه والتي لم يذكرها ابدا في المؤتمر اذ لم يكن هناك ما يدعو الى ذلك لاتفاق وجهات النظر اتفاقا كاملا .

ودفاعه الحماسي فيما كتب يلقي ظلالا كثيفة على نوايا من حضروا المؤتمر او على بعضهم على اقـــل التقدير اذ يوحى بأن هناك من كان يهدف من طـــرح

« الاجراء العاجل » لاحراج القيادة السياسية للتورط في قتال قبل اوانه الامر الذي لا اظن انه كان في خاطر احد من الحاضرين .

● كانت نقطة الخـــلاف الوحيدة والـتـي دار النقاش حولها هي المدة التي تقبل فيها ايقاف اطـــلاق النيران وربما كنت انا الوحيد الذي اثار هذه النقطـــة وقد اوضحت أهمية ذلك حتى ترتبط القيادة العسكرية أمام القيادة السياسية بموعد تكون جاهزة فيــــــه لاستئناف القتال وهذا يعطي للقيادة السياسية فـــي تحركها المقبل مرونة كاملة اذ ستكون قادرة علـــى التحرك من قاعدة وطيدة صلبة وحاول الجميع بمـــا فيهم هيكل اقناعي بغير ذلك .

وبالرغم من ذلك فقد كانت توصية المؤتمر هـــي « مد ايقاف أطلاق النيران » وليس كما ذكره هيكل في كتابه « مد وقف اطلاق النيران فترة ثلاثة شهـــــور اخرى » والدليل على ذلك أن القتا لم يستأنف منـــذ ذلك الوقت الا حينما تفجر الموقف كله في ٦ اكتوبـــــر ــ تشرين أول ١٩٧٣ اي بعد عامين كاملين .

● لم يكن هناك ما يستدعي دهشة هيكـــــل حينما قال الفريق محمد فوزي وزير الحربية « أنـــــا جندي . واذا صدر لي امر مكتوب فاني سأنفذ مـــــا تطلبه القيادة السياسية » فهذا امر طبيعي معمـــــول به دائما وهو ما يعبر عنه « بأمر القتال » الذي يحدد

فيه العرض من استئناف القتال كذا المهمة المطلوب تحقيقها . تلك الدهشة التي تيلت عرضا في حديث هيكل تلقي ظلالا وشكوكا على مؤتمر كان يبحث مسألة قومية بطريقة مجردة وكان الجميع لا يقلون وطنية ولا غيرة عن الاخ هيكل في نظرتهم تلك . اما ان هذا الوضع لم يكن معمولا به من قبل فان معركة يونيو ١٩٦٧ لم نتوقف يوما واحدا حتى قبول ايقاف النيران عام ١٩٧٠ بل دخلت مصر في معارك الصمود ثم حرب الاستنزاف دون أن نوقف العمليات يوما واحدا .

● لم يكن هناك احتجاج من بعض ممن حضروا المؤتمر على قيام هيكل بانهاء المناقشة بطريقة مفاجئة كما يقول فلم يكن من حق الزميل ابدا — مع احترامي وتقديري لشخصه — ان ينهي اعمال المؤتمر او يجعله يستمر او يوجهه كيفما يشاء خاصة في حضور الشخصيات التي ذكرها .

ومناورته التي ذكر أنه قام بها للرد على من كانوا يؤيدون « الاجراء العاجل » بأنه وجد أن خير وسيلة لحسم الموضوع هي سماع راي الرجل المحترف مناورة لم تحدث على الاطلاق . فكما قلت فان الموضوع كله لم يكن يستدعي مناورات لانه كان من البديهي ونحن نبحث موضوعا يتعلق بأيقاف اطلاق النيران وفي مكتب وزير الحربية ان نسمع لراي الرجل ولم يكن

هذا يحتاج الى جسم أو مناورة !!!

كان الموضوع خطيرا شأن الموضوعات الكثيرة التي كنا نناقشها . وتمت المناقشة في حدود الارتفاع الى مستوى المسؤولية من جميع الزملاء الحاضرين . ولم تكن هناك اي اتجاهات تحتاج الى استغراب او دهشة ولا الى رموز وتشكك !! كانت المناقشة تجري في سهولة ويسر بين زملاء يقدرون الكارثة التي يواجهونها تسيطر عليهم روح الفريق وفي مخيلة كل منهم ان القائد مات في احرج الاوقات والعدو يدق الابواب والعالم كله ينظر الى ما يجري في القاهرة وكل يجري حساباته ويعيد تقديرها من جديد في ظل المتغيرات التي حدثت او التي ينتظر حدوثها ..

واجتماع اخر اجدني رغم انفي اتعرض له لاروي حقيقة ما تم فيه . واجدني — للاسف الشديد — وللثاني مرة اخالف الاخ محمد حسنين هيكل فيما رواه عنه ... وايضا سأنقل رواية هذا الاجتماع عما قاله الاخ الفاضل في كتابه « الطريق الى رمضان » ...

« وفي اثناء خروجنا من الاجتماع — يقصد الاجتماع السابق الذي كنا نبحث فيه موضوع ايقاف النار — اقترب مني شعراوي جمعة وقال : اظن اننا يجب ان نذهب الى مكان نجلس فيه ونتحدث انت وانا وسامي وأمين هويدي . فقلت لا بأس . وركبنا نحن الاربعة السيارة الرسمية لوزارة الداخلية المخصصة

له . وجلس هو في المقعد الامامي بينما جلسنا نحن في المقعد الخلفي . وتبعتني سيارتي . كان شعـــراوي وسامي وامين هويدي اتفقوا على ان يقضوا الليل في مبنى هيئة قناة السويس في جاردن سيتي ومن هنـــاك يستطيعون بسهولة أن يصلوا الى مبنى مجلس الثورة في الجزيرة حيث يبدأ في تشييع الجنازة . أما أنا فكنت سأقضي الليل في منزلي على النيل مباشرة . وهكـــذا فاننا كلنا كنا متجهين الوجهة نفسها . لكن عندمــــا وصلنا الى العباسية على بعد ٤ أميال من وســـــط المدينة كان الميدان اصبح مغلقا تماما وطلب شعراوي الى السائق ان يتجه شمالا وان يحاول السير فـــي الطريق الخلفي الذي يمر بالقلعة وعندما اقتربنا مـــن امام كلية البوليس أوقف السيارة والتفت ناحيتنـــــا وقال : اولئك الثلاثة انور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري ينزلون في قصر القبة ويتصرفون كأنهم حكومة ثلاثية مثلهم في ذلك مثل كوسيغين وبودغورني وبريجنيف بينما نحن الناصريين الحقيقيين واقـــرب الناس الى عبد الناصر لم نفعل شيئا للتنسيق في مـــا بيننا او الاتفاق على اسلوب مشترك للعمل . وهـــذا ما يجعلني أرى ضرورة البحث في الموقف بعضنا مع بعض . فقلت له : لنكن واضحين بشأن موقف كل منا هناك نقطة نظام اضعها . ونصيحة صغيرة اقدمها . اما نقطة النظام فهي انكم اذا كنتم تريدون التنسيـــق

فيما بينكم بصفتكم وزراء فلا تفعلوا ذلك بحضوري لاني قد استقر رايي على الخروج وترك الوزارة . وقد اثار قولي غضبا شديدا لدى سامي شرف وقال : لا .. اما ان نخرج كلنا او نبقى كلنا . فقلت : اني لم اكن ابدا جزءا من السلطة كما هو الحال بالنسبة اليكم . كنت دائما صحفيا ولم اقبل منصب وزير الارشاد الا تحت ضغط شديد من جانب عبد الناصر وتعهدت بقبوله لمدة سنة فقط وقد انقضت الان ستة اشهر وانتقل عبد الناصر الى رحاب الله وهكذا فقد قررت ان اتحلل من وعدي . واعترض سامي بأني اذا فعلت ذلك فسأبدوا كأني غير مستعد للعمل تحت رئاسة اي شخص اخر غير عبد الناصر في حين انهم سيظهرون في مظهر المستعد لخدمة اي شخص . وقلت لسامي انه يبالغ واني اتخذت قراري بالخروج من الوزارة وسأتمسك به ولذا فاني لا أوافق على أن يتم اي تنسيق بين الوزراء في حضوري . تلك كانت نقطة النظام . اما نصيحتي الصغيرة فهي ان من الخطأ بالنسبة لهم ان يحاولوا العمل معا كناصريين . ان فعلتم ذلك فأنكم ولا شك ستثيرون ردود فعل تؤدي في النهاية الى صراع على السلطة واذا حدث تصادم في الاراء فاني سأؤدي دوري فيه كصحفي اما اذا نشب صراع على السلطة قائم على الاشخاص فلن يكون لي شأن به وستعاني البلاد كلها منه . وازداد

سامي انفعالا وراح يصيح : عبد الناصر لم يمت فقلت له : اسمع لا بد ان تواجه حقائق الطبيعة . ان الرجل مـــات وسيحكم على كل منكم فقط مـن الان فصاعدا بما يمكن أن يقدمه من اجل مصلحة البلد . انها صفحة جديدة فتحت أمامكم جميعا . وبدا سامي يبكي ويصرخ بأننا اما ان نبقى كلنا أو نخرج كلنا . وعندئـذ فقدت أعصابي ونزلت من السيارة واتجهـت الى سيارتي وكانت تقف وراء سيارة شعراوي مباشرة . وعدت الى القاهرة » .

هذه رواية « هيكل » عن هـذا اللقاء وقبل ان ابدأ في التعليق أوضح الاتى :ـ

● لم يمسني هيكل في حديثه من قريب أو بعيد ولم يمسني الرجل في احاديثه التلفزيونية التي اجراها عقب احداث مايو ـ ايار ١٩٧١ ولا في مقالاته التـي نشرها في « الاهرام » وهو رئيس تحرير له .. فهكذا اخبرت بعد فترة من وقوع كل ذلك اذ كنت في ذلــك الوقت في « زنزانتي » أعاني من « الحبس الانفرادي » لا يسمح لي بالاستماع الى « الراديو » ولا بقـراءة الصحف بل ولا بالحديث مع احد .. اما توفر قلـم وورق للكتابة فكان ترفا لم احلم به او افكر في حدوثه في تلك الفترة الصعبة .

● وكان من الحكمة ـ والحالة هكـذا ـ ان اقفز فوق ما قيل واعبره كما يفعل الكثيرون ولكنـي

بذلك أكون كاتما للشهادة الامر الذي نهانا عنه اللـه تعالى في كتابه العزيز . ثم لا اظنني أضير احدا ــ حتى هيكل ــ بقولي ما حدث دون تحريف والا كان مــن الافضل أن أقلد « القرد الجالس » الذي سد أذنـه حتى لا يسمع وأغمض عينيه حتى لا يرى وقفل فمـه حتـى لا يتكلم . وأنا في كثير من الاحيان أرغب فـي ذلك ولكني تحت وقع احداث معينة لا أقدر علـى الامتثال للرغبة الجامحة في السكوت .. تماما كمـا حدث في مساجلاتنا معا أيام ما كتبه عن « زوار الفجر » واصراري على الايضاح كما أفعل الان مع فارق الزمان والظروف .. فقد مرت على تلك المساجلات عشـر سنوات كاملة حدثت فيها احداث وأحداث . ثم أصبح كلانا من ناحية الظروف مهاجرا بقلمه وفكره بحكـم الاحداث والاحوال .

● ثم ــ وهنا أضع خطين تحـت ما أقول ــ فانني لا أدافع عن أحد ممن ذكرهم هيكل في حديثـه فكل واحد منهم يفوقني قدرة في الدفاع ان كان الامـر يتطلب ذلك . فكما سبق وان قلت فانني لا انتسب الى « جماعة » أو « شلة » حتى من أيام عبد الناصر من كان يريد أن يقترب فأهلا به ولكنى ما سعيت الى الاقتراب من أحد . واذا كان هذا قد تم في الماضي أيام وجودي في « حفرة ومازق » السلطة فالاجدر بـه أن يتم بعد « التخفف » من أثقال السلطة ومحاذيرها .

. ● لا يعني قيامي بالتصحيح انني اتخذت موقفا من احد فالحوار لا يعني من وجهة نظري الا وسيلة لزيادة التقارب وتيسير اللقاء لانه يساعد على وحدة الفكر خاصة في مواضيع اصبحت في ذمة التاريخ . والحوار في الوقت نفسه عامل مساعد للتاريخ للاحداث فانه بدلا من أن يحصر الامر في مصدر واحد فأنه يساعد على خلق مصادر متعددة تساعد على الدقة .

وبعدما ذكرنا من نقاط النظام هذه نبدا في التعليق . . . .

● فلم يتم اللقاء — كما قال هيكل — امام كلية الشرطة وبعد انتهاء الاجتماع الذي تم في مكتب وزير الحربية في كوبرى القبة ولكن بداية اللقاءات تمت في قصر القبة . فقد ذهبت انا وشعراوي وسامي الى القصر لنرى سير الامور في زيارة خاطفة وتركنا سامي في الشرفة الخارجية لفترة طويلة عاد بعدها فجاة ومعه هيكل . ولم اكن اعلم بوجوده في القصر ولم اكن اعلم ان اتفاقا تم بين ثلاثتهم على اللقاء . وبذلك كنت الوحيد الذي يجهل ان لقاءا سوف يتم .

● لم يتم الاجتماع بطريقة مفاجئة كما يقول هيكل ولكن باتفاق مسبق فانه من الجائز ان يكون قد اندفع بغريزته الصحفية لمثل هذا اللقاء حتى يتحسس الاوضاع بنفسه . . ربما لنفسه ، وربما لغيره ، وربما للغرضين معا . . . وليس في هذا عيب فمن الحكمة ان

يعرف كل فرد اين يضع قدمه . وعلى ما اذكر فسان الاجتماع تم في مدخل مدينة نصر وليس أمام كلية الشرطة بالرغم من ان هذا لا يغير قليلا او كثيرا في الموضوع .

● لم يلق هيكل ابدا بكل هذه النصيحة عن الناصرية والسلطة والصراع ..

ولم يتحدث شعراوي جمعة ابدا عن السادة : السادات والشافعي وعلي صبري كما لم يتحدث عن « الترويكا » الروسية ..

ولم يصرخ سامي او يبكي ولا هو انكر وفاة عبد الناصر ...

ابدا لم يحدث شيء من هذا كما صوره هيكل في اسلوب غلبت عليه الاثارة الصحفية التي تبعث على التشويق .

ولكن كل ما ذكره شعراوي لهيكل هو اننا قررنا التخلي عقب تشييع الجنازة وبعد انتقال السلطة بالطريقة الدستورية وسأله عن رايه في ذلك .. !!!

● رحب « هيكل » ايما ترحيب بالفكرة وذكر ايضا انه سيترك المنصب الوزاري ليتفرغ لرئاسة تحرير الاهرام حيث كان الرجل يجمع بين المنصبين مضيفا انه لكل زمن رجاله وعلى الجميع ان يعيدوا النظر في افكارهم وسوف تتعدد اللقاءات في الايام القادمة . وسلم الرجل واتجه الى عربته دون ان يفقد

اعصابه ودون ان يغضب واتجه الى منزله واتجهنا نحن الى مكتب سامي شرف وهناك انفجرت في الرجلين لتوريطي في اجتماع لم اخطر به وتساءلت عن سبب اخذ راي هيكل في موضوع يتعلق برغبة كل واحد منا وبارادته ثم لم يكن الموضوع في حاجة الى مناقشته في مدينة نصر وكان الافضل مناقشته في قصر القبة حيث كنا او في مكتب اي فرد فينا .

كنا قد اجتمعنا مرارا وهذا أمر عادي وقررنا ان نتخلى عقب نقل السلطة بالطريقة الدستورية لنفسح المجال للسيد أنور السادات ليختار معاونيه ولو انني كنت مزمعا على ان اتخلى في اقرب وقت ممكن . ورأى شعراوي ان يستشير هيكل في الامر لان من عادته أنه كان يستشير هيكل وسامي في كل أمر يقدم عليه .

وكما نرى فان الموضوع الذي تم بسيط للغاية ولكنه حسم بطريقة تلقى الظلال على النوايا ..

ولا شك ان هذه الظلال كانت بالضرورة تترك اثارا في النفوس تتعمق بمرور الايام ..

وحتى لا ننسى .. كانت جثة عبد الناصر ما زالت موجودة في قصر القبة لم يتم تشييعها بعد الى مثواها الاخير .. .. ..

الفصل الحادي عشر

الــــوداع الاخــــير

ثلاثة استقالات ـ ترتيب نقل السلطة ـ الكل عازم على ان تنقل السلطة باسرع ما يمكن وبطريقـــة دستورية ـ وساطة الى جعفر النميري ـ عزيز صدقي يصدر بيانا ـ سرادق كبير في عابدين ـ الوداع يـــا جمال يا حبيب الملايين ـ واختلط الحابل بالنابل ـ وقفل باب المقبرة ـ ماذا قيل في وفاة عبد الناصر ـ دمـوع على جمال ودموع على وفاء الرجال .

انتهينا في الفصل السابق الى بعض ما كـــان يحدث بعد وفاة الرئيس وقبل مواراة جثمانه ولا بأس من سرد تفصيلات أخرى . . .

ففي خلال ايام قليلة من وفاتـــه قدمت ثــلاث استقالات :

● الاستقالة الاولى من الدكتور محمود فــوزي وكان ذلك في أول اجتماع للجنة التنفيذية العليا بعد وفاة الرئيس ويبدو أنه كان متأثرا من عدم حضـــوره اول

اجتماع مع الوفد السوفياتي برئاسة كوسيغين واراه ان يجس النبض بالنسبة لوضعه في النظام الجديد . ولذلك فانه سحب استقالته بالسرعة التي قدمها بها بمجرد ان ابدى اعضاء اللجنة تمسكهم به !!

● الاستقالة الثانية قدمها محمد حسنين هيكل من منصبه الوزاري كوزير للارشاد آلا ان السيد انور السادات راي الا يبت فيها الا بعد الاستفتاء على منصب رئاسة الجمهورية الذي كان قد تحدد في ذلك الوقت !!

● الاستقالة الثالثة قدمها السيد حسين الشافعي وامتنع فعلا عن الذهاب الى اجتماع اللجنة المركزية الذي كان سيتم فيه مناقشة قرار اللجنة التنفيذية العليا لترشيح السيد انور السادات لمنصب رئيس الجمهورية . وكان سبب تقديمه للاستقالة هو تمسكه بمنصب رئاسة الوزراء طالما ان السيد انور السادات رشح لرئاسة الجمهورية . ويبدو أن احدا لم يتصل بسيادته بخصوص هذه الاستقالة وبالرغم من ذلك فانه سحبها في اليوم التالي كما علمنا !!

وكان سيادته هو العضو الوحيد في اللجنة التنفيذية العليا الذي اعترض على ترشيح السيد انور السادات للرئاسة وذكر انه متأكد ان سيادته ربما لا يحصل على الاصوات الكافية للترشيح وهنا تصبح الثورة نفسها وقد سحب الشعب الثقة منها الا ان السيد

انور السادات تقبل هذا الاعتراض بروح ديموقراطية سمحـــــة .

وفي الوقت الذي كانت تقدم فيه تلك الاستقالات كان العمل الجاد لاكمال الترشيح لمنصب رئاســـــة الجمهورية يتم على قدم وساق فاستقر الراي على الاتي :

● يعرض الترشيح على اللجنة التنفيذية العليــا يوم السبت ٣ أكتوبر ــ تشرين اول ١٩٧٠ .

● يعرض الترشيح على اللجنة المركزية يـــوم الاثنين ٥ أكتوبر ــ تشرين أول ١٩٧٠ .

● دعوة مجلس الامة لاجتماع غير عادي صباح يوم الاربعاء ٧ اكتوبر ــ تشرين اول ١٩٧٠ .

● يتم الاستفتاء يوم الخميس ١٥ اكتوبـــــر ــ تشرين أول ١٩٧٠ .

● اذا جاءت نتيجة الاستفتاء بنعم يجتمع مجلس الامة يوم السبت ١٧ اكتوبر ــ تشرين أول ١٩٧٠ .

ليؤدي رئيس الجمهورية امام المجلس اليميـــــين الدستورية وفقا لنص المادة ١٠٤ من الدستور وانصرف كل فيما يخصه لبذل كافة جهده حتى يتم نقل السلطـــة بالطريقة الدستورية في صورة رائعة وقد تمت كل هذه الخطوات في دقة اذهلت العالم وكانت محل تعليقـــات من كافة الجهات الرسمية والصحافة واجهزة الاعــلام

العالمية وقد التزم الجميع بالدستور القائم التزامـــا لا شك فيه ولذا فان أي محاولات وتقولات تذكر هنـــا وهناك عن التشكيك من قيمة الجهد الذي بذل في ذلك الوقت او في النوايا منها تشويه ضار للصورة الجميلة الرائعة الصادقة التي تمت بها الامور في ذلك الوقت .

والى جانب هذه الاستقـــالات حدثت بعـــض المحاولات لتآلف الجهود والوحدة الوطنية في تلـــك الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد . ولقـــد قيـــل الكثير في نوايا القائمين بها وقيل أكثر في الاسباب التي تختفي وراء الظواهر . ولا شأن لي بالنوايا فعلمهـــا عند الله . وما احاوله هو مجرد تدوين ما حدث بصدق وامانة .

ففي احد الاجتماعات التي تمت مع جعفر النميري في فندق هيلتون وقبل ان تشيع الجنازة تحدث الرجل عن احدى هذه المحاولات . كان موجودا معـــه الاخ فاروق ابو عيسى وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء في الخرطوم وكان موجودا من الجانب المصري شعراوي جمعة وسامي شرف وامين هويدي .

وقد تحدث الرجل بأن امين شاكر ـ وزيـــر السياحة السابق ـ اتصل بوزير المواصلات السودان محمود حسيب واخيره أن بعض اعضاء مجلس الثورة القدامى يريدون مقابلة الرئيس النميري ليكون واسطة خير مع السيد انور السادات حتى يتم تآلف الجميع في

تلك الفترة العصيبة . وتساءل النميري عن مدى ترحيب السادات بهذه الخطوة . . وهنا تدخل فاروق أبو عيسى ذاكرا انه يرى الا يتدخل الرئيس النميري في مثل هـذه الموضوعات وقد اتفق معه على ذلك وهم يخبرونـــا بالمحاولة لمجرد العلم .

وفي فجر هذا اليوم كنا مع السيد انور السادات في قصر القبة حيث كان يمضي ليلته وقص سامي شرف ما سمعه على سيادته وفوجئنا بان سامي يقترح اعتقال « امين شاكر » الا ان سيادته رد في الحال « لا اعتقال انا لا أريد ان نبدأ اجراءاتنا بعد وفاة عبـــد الناصر باعتقالات » اما عن المحاولة نفسها فقد رفضها سيادته واخذ يتحدث بمرارة عن الصراعات التي كانت موجودة في مجلس الثورة القديم . . . ثم تركنا كل هذا واكملنـا حديثنا بخصوص نقل السلطة واعمال الدستـــور وتحديد تواريخ الخطوات اللازمة لذلك .

وفي اليوم التالي مباشرة ارسل اعضاء مجلـس الثورة القدامى الى السيد انـور السادات مذكـــرة مكتوبة يعرضون فيها اعادة تكوين مجلس الثورة على اساس ديموقراطي ويتولى سيادته الرئاسة وقـــد وقع على المذكرة على ما اذكر كل من السادة عبـــد اللطيف بغدادي ، زكريا محي الدين ، حسن ابراهيم، كمال حسين ورفض السيد انور السادات مقابلتهـــم

كطلبهم في المذكرة وذكر انه سيكتفي بمقابلة بغدادي لانه يرتاح اليه دون الاخرين وقد تمت المقابلة ولا ادري شيئا عما تم فيها .

واصدر الدكتور عزيز صدقي بيانا الى العمال قال فيه : « لقد ناضل جمال عبد الناصر طوال حياته في سبيل تدعيم الاشتراكية في بلدنا ليحقق لكل مواطن الكفاية والعدل وعندما كان يطبق هذه المبادىء فانما كان في ذلك منفذا لارادة هذا الشعب ومعبراً عن اماله واحلامه . ولقد سار خلف جمال عبد الناصر اعوان له ساهم كل منهم بنصيبه فيما راى جمال عبد الناصر انه قادر عليه وهناك من تخلف بعد جزء من الطريق وهناك من اكمل الشوط حتى نهايته وكان الشرط الذي لا يرضى الرئيس الراحل عنه بديلا لمن يبقيه معه في مسيرته ايمانه بالمبادىء التي نادى بها الشعب .. ايمانه بالاشتراكية . في وقت الشدائد يجب ان نتصارح بالحقيقة فهي التي تقينا من الوقوع في اوهام باطلة . لن يقود المسيرة — مسيرة الاشتراكية الا الذين يؤمنون بمبادئه الاشتراكية .... واني اطمئنكم اننا لن نسمح لمن ارتد او تخلف او ظن ان الاشتراكية تنتهي بموت عبد الناصر أن يرفع راسه او ان يكون له مكان في مسيرتنا . ان عبد الناصر في اثناء حياته اصدر حكمه وعبر عن رايه في كل من عملوا معه . لم يبق معه الى

نهاية الشوط الا الذين امن لهم واطمأن الى انهم يعتنقون المبادىء الاساسية التي عمل من أجلها وانهم سيكونون قادرين على الحفاظ عليها . »

وواضح ان عزيز صدقي في بيانه هذا يغمز ويلمز اعضاء الثورة القدامى الذين تركوا السلطة او تركتهم السلطة ايام عبد الناصر . وقد اثار هذا الامر عبد اللطيف بغدادي فكتب كتابا شديداً وجهه الى عزيز صدقي وارسله مع سائق الى منزله يسبه فيه ويوجه اليه الاتهامات الثقيلة التي وصلت الى حد السب والقذف اذ تحدث الرجل عن الكذب والانتهازية والرجولة ... بلهجة قاسية وصمم عزيز على الرد الا ان بعض النصائح المخلصة اقنعته بالتمسك بالصمت . وقد امتنع .

ووسط الاستقالات العديدة وسحبها والرجوع عنها ، والبيانات الحماسية والخطابات ألتي ترد عليها، والمذاكرات الكتابية وتجاهلها .. لم تعدم البلاد بعض من أخذوا يعملون بصمت وبالتزام وبصدق حتى تسير الامور في مجراها الدستوري . ولا يقلل من ذلك الجهد الذي بذل في تلك الفترة ما قيل عنهم بعد ذلك وهم في السجون اثناء محاكمتهم بتهمة غليظة هي « الخيانة العظمى » او « الاشتراك فيها » .

وبعد الوفاة مباشرة اقيم سرادق كبير في ساحة

عابدين في نفس المكان الذي كان يلقي فيه « الريس » خطاباته العديدة لتقبل العزاء . ووسط قراءة آيـات القرآن الكريم كانت وفود الشعب تتوافد واختلـــط المعزون بمن يتقبلون العزاء وتوافدت النساء مـــع الرجال متخطين عادة وعرفا وتقليداً يقضي بالا تذهب النساء الى سرادقات العـــزاء . وكانت النساء حتى الفقيرات منهن يولولن ويصحن ويصرخن عن « الاسد » الذي تركهن وعن « السبع » الذي غادرهن الى غـير رجعة . وكان الشبان يبكون في حزن والشيوخ تسيل دموعهم على الاذقان وهم يترحمون ويطلبون من اللــه ان يعينهم على بلواهم .

وفي الليلة السابقة على تشييع الجنازة أتفــق بعض الاصدقاء على ان نمضي الليلة في مبنى هيئة قناة السويس بجاردن سيتي على النيل حتى نتفادى امواج البشر التي كانت قد ملأت الشوارع فقد خرجت الملايين لتشيع زعيمها في موكب وزحام لم يتكرر من قبل ولا اظنه سيتكرر من بعد .

وسهرنا الليلة بطولها فلم يكن أحد راغبا فـــي النـــــوم .

وكان الشعور ما زال يسيطر على البعض مـــن ان « الريس » كان ما زال معنا لمجرد ان « جثته » لم تدفن بعد ... لم يكن هناك احساس حقيقي بحـــدوث

الموت عند الكثيرين ولم يكن هناك ادراك بمدى الفراغ الهائل الذي سوف يحدث .. كان عبد الناصر مـــــا زال موجودا في « قصر القبة » وكان الكل يعملـــون حسابا لذلك حتى وهو جثة هامدة لا تقوى على شيء .. كان ما زال يشد « الاسراع » قبل أن تقطع وترتخـي

كنا نتحدث عما سنفعله في اليوم التالي وكانــه احد الواجبات التي كان يكلفنا بأدائها في حياته وكانت العاطفة هي التي تحكم في العقل وتسيطر عليه . لم يفكر أحد فيما بعد وفاة عبد الناصر الا تفكيراً عاطفيـا سطحيا اقرب الى ابناء فقدوا الاب الذي كان يرعاهم.

وكان هذا تقصير ما بعده تقصير .

بل كان مجرد محاولة الانتقـــــال الى التفكـير العقلاني يثير ثائرة بعض الموجودين فحينما كنا نتحدث مثلا عن عائلة الرئيس بعد رحيله فكرنا أن نتقـــدم باقتراح بتخصيص منزله الذي عاش فيه لزوجتـــه طوال حياتها لان الرجل نسي في غمرة مسؤولياته ان يترك لعائلته منزلا ينتقلون اليه بعد الوفاة وتخصيص معاش لها هو نفس مرتب « الريس » الذي كان يتقاضاه لانه نسي وسط مشاغله أن يترك لعائلته مصـدر رزق اخر !! هنا اقترح البعض وسط الانفعال السائـد ان يطلق على الرئيس الراحل لقب الزعيم وعلى زوجتــه حرم الزعيم ولما اعترض البعض على ذلك لما يترتب عنه

من حساسيات يجب تجنبها ترك هؤلاء المبنى بمن فيه غاضبين من هؤلاء الذين خانوا الزعيم الذي لم يدفن بعد ...!!

وتحدث البعض عما يمكن أن يفعل لتخليد ذكرى الراحل العظيم .. وكانت الصحف قد بدات تتحدث عن عشرات المشروعات لتخليد ذكراه وتكونت لجنة تحت اشراف جريدة الاهرام . وبدأ البعض يطرح بعض الاقتراحات العاطفية وحينما بذلت محاولات لنقل الجميع الى أرض الواقع ثارت المناقشات الحادة التي تبودلت فيها الاتهامات وسط الاعصاب المشدودة والنفوس الثائرة والقلوب الحائرة .

امور لا تجوز ... ولكنها حدثت .

وانطلق طوفان البشر طول الليل ينشد بصوت واحد مهيب كلمات اغنية حزينة وما لبثنا ان وجدنا انفسنا ننشد مع الناشدين والدموع تسيل بغزارة مياه النيل الذي يمر أمامنا . كانت الاغنية تقول ...

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ... الوداع .

ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين ... الوداع.

انت عايش في قلوبنا يا جمال الملايين ... الوداع

انت ثورة ، أنت جمرة نذكرك طول السنين ...

الوداع .

انت نوارة بلدنا واحنا عذبنا الحنين ... الوداع.

انت ريحانة زكية لاجل كل الشقيانين ... الوداع.

الوداع يا جمال يا حبيب آلملايين ... الوداع .

وحتـــى الان لا يعرف أحد على وجه التحديد كيف انطلق هذا النشيد من كل هذه الالسنة ولا يعــــرف احد على وجه التحديد كيف انتشر بين ملايين البشر ولا كيف حفظوا كلماته والحانه !!

قيل انه في اليوم السابق للجنازة طافت شوارع القاهرة فرقة فنية من أبناء بور سعيد المهاجرين يرددون الشعارات ووسط هتافاتهم الحزينة ولدت هذه الاغنية. من الف كلماتها ؟ لا احد لديه ألجواب . كانت بدايتهـــا بيتا من الشعر كتبه « عبد الرحمن عرنوس » مــدرب فرقة « شباب البحر » . كان البيت يقول « الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ... الوداع » وانطلق افــراد الفرقة يرددونه في نغماب حزينة وانضم اليهم ملايـــين البشر فولدت الكلمات تباعا وسط البكاء والولولة ... اما اللحن فقد وضعته الجماهير من خلال نواح النساء وعويلهـــــن .

وطبعت منه ملايين الاسطوانات والاشرطـــــــة ليسمعها كل بيت في طول البلاد وعرضها .

ومر الليل الثقيل ولم ينم احد ... كانت الامة كلها ساهرة تحضر « للموكب الجنائزي » الذي ستشارك فيه في اليوم التالي ... وامتلأت الشوارع والحدائق

والمنازل .... كانت الجمهورية كلها خرجت فـــي العاصمة وفي الاقاليم لتودع القائد والزعيم .

وحينما خرجنا في اصباح الباكر لنعبر « كوبري قصر النيل » الى ارض الجزيرة حيث يوجـد « مجلس الثورة » ظهر لنا ان كل ما خططنا له يصعب علينـــا تنفيذه . فلم يكن من الممكن ان نسير عشرات الخطوات التي تفصلنا عن « الجسر » ولم يكن امامنا الا ان نعبر النيل في الزوارق الى الشاطىء الاخر . وخوفنا مـــن ان يفعل اخرون مثل ما فعلناه وما ينجم عن ذلك مـــن خسائر محتمة صدرت التعليمات الى كل الزوارق بأن تترك الشاطيء الغربي للنيل الى الشاطيء الشرقـــي او الى وسط النهر الخالد .

وكان النظام خارج « بناء مجلس الثورة » سائدا . وقفنا نستقبل المعزين مـن رؤساء الدول ومندوبيهـــم البعض كان يبكي ، والبعض الاخر كان حزينا في صمت، والقليل منهم كان يؤدي الواجب الرسمي . ووصـــل الجثمان في طائرة هليكوبتر نقلته بعد ان صلي عليه في قصر القبة . وكان النعش قد صنع بطريقة خاصة لانه كان متوقعا ان تخطفه الجماهير وقوى الهيكل الخشبي بصفائح من الحديد تلتف حوله وباقفال يصعب فتحهـــا ثم ثبت على عربة المدفع التي تجرها الجياد ويحرسها مئات الضباط والجنود .

وكانت الدقائق تمر وكأنها الساعات والكتل البشرية

تمكنت من التسرب رغما عن نطاقات الاسلاك الشائكة المضروبة في كل مكان . . كان التسرب قليلا في باديء الامر ثم ما لبث أن اصبح عاما وبمرور الوقت اخذت الكتل البشرية الباكية الناحبة تطغى على المكان الذي ستمر فيه « الجنازة » .

وبعد دقائق من سير الجنازة لم يعد هناك نظام او سيطرة فقد اختلط الجنود المكلفون بحفظ النظام بباقي طوائف الشعب ولم يعد في امكان أحد ان يسيطر على النظام .

وكان من الصعب على الرؤساء الذين يشيعون الجنازة ان يستمروا في تادية الواجب الثقيل حتى نهايته ولم يكن من المناسب ان تتكبد الوفود الاخرى كذلك المشقة الهائلة التي اخذت تتصاعد عند وصول الجنازة الى كوبري قصر النيل . فأشير على هؤلاء بان يعودوا مرة اخرى الى السرادق وقد فعل البعض منهم ذلك واصر الكثيرون على مواصلة السير .

وحينما وصل الموكب الى قرب « الهيلتون » ضاق الطريق وزادت صعوبة السير وسقط البعض تحت الاقدام وقد ساهمت مع اخرين في عمل حلقة دائرية حول هؤلاء لنمنع كارثة محققة وحملنا بعض من سقطوا الى اسطح بعض العربات التي كانت واقفة هناك وتم نقل هؤلاء بعد ذلك بواسطة اخرين الى داخل الفندق .

وظهر خطر جديد بطريقة فجائية اذ امر البعض على نزع « النعش » من على عربة المدفع التي تجرها الخيول وهنا استمات الجنود الموجودون حول « النعش » ليحولوا دون ذلك واعطى احد الضباط التعليمات لتعدو الخيول بعربة المدفع حتى تتفادى الكارثة ثم نقل النعش بعد ذلك الى احدى العربات ليصل الى جامع « عبد الناصر » في كوبري القبة حيث سيتم الدفن .

وتركنا موكب الجنازة بصعوبة واخذنا بعض العربات من الطرق الجانبية ولحقنا « بالنعش » في الجامع وحضرنا الصلاة على الجثمان .

وكانت هناك جماعة الدفن جاهزة خارج المسجد لموارة الجثمان الطاهر في مثواه الاخير وكان يشرف على الجماعة التي ستسد المقبرة المهندس علي السيد رئيس احدى شركات المقاولات في ذلك الوقت ووزير الاسكان بعد حركة ١٥ مايو — ايار ١٩٧١ .

ورأيت الجثمان محمولا الى داخل المقبرة ووضع بجوار الحائط الغربي . ورأيت عبد الناصر الذي ظل واقفا طوال حياته يناضل ويكافح وقد استراح اخيرا في مثواه الاخير . اصبح العملاق شأنه شأن اي فرد مجرد جثمان وضع الى جوار حائط ولا حول ولا قوة الا بالله ، ولا عظمة الا لله ، ولا بقاء الا لله .

واندفع بعض الضباط ومعهم محمد أحمد وبعض أولاد « الريس » ليودعوه الوداع الاخير ونظروا من خلال الحائط الذي كان يبنى وتضيق فتحاته شيئا فشيئا وصفوف « الطوب او الطابوق » ترتفع شيئا فشيئا ثم انسحب الجميع الى الخارج وقد ارتفعت اصواتهم بالبكاء والعويل .

وكنت ما زلت واقفا أراقب وأتأمل وقد هانت امامي الدنيا وما فيها . هل حقيقة هذه هي الدنيا ؟! هل حقيقة ان الرجل الذي ملأ العالم أجمع بصورته وصوته وعمله قد انتهى به الامر هكذا الى جوار حائط وهو ممدد على الارض ؟!!

ووسط هذه التأملات تقدم مني احد الضباط من حرس « الريس » قميصه مفتوح وقد ضاع غطاء راسه والدموع تسيل من عينيه وهو ينتحب وادى التحية العسكرية وهو مشدود الاعصاب وسألني « هل صحيح ان عبد الناصر مات ؟ » فقلت له «نعم» فقال « طيب » واشتد نحيبه . وبحركة عسكرية دار الى الخلف . وذهب .

وانصرفت بعده وقد جفت دموعي .

كتب « رجاء النقاش » مقالا في العدد الخاص لمجلة الهلال الذي اصدرته في نوفمبر — تشرين ثاني ۱۹۷۰ عن جمال عبد الناصر تحت عنوان « ادباؤنا

ومواقف لا تنسى لعبد الناصر » . . . جاء في المقال عن موقف عبد الناصر من توفيق الحكيم ان اسماعيـــل القباني الذي عين وزيرا للمعارف في بداية الثورة تقدم الى مجلس الوزراء بطلب فصل توفيق الحكيم من دار الكتب لانه لا يؤدي عمله كموظف على الوجه الاكمـل ودهش عبد الناصر من اقتراح القباني واعترض عليه اشد الاعتراض واعتبر وجود « الحكيم » في دار الكتب تشريف لها . ومرة اخرى وقف عبد الناصر موقفا رائعا من توفيق الحكيم ففي أواخر الخمسينات شن الناقـد الكبير احمد رشدي صالح حملة عنيفة ضد توفيـــق الحكيم محورها أن كثيرا من أعمال الحكيم المسرحيـة والروائية مقتبس من اصول أجنبية وكان يعني بذلك — علـى حد قـول النقاش — أن توفيق الحكيم لـــم يكن اديبا ولا فنانا بل مترجمـا ولصا اديبـا وتأثـر الحكيم ايما تأثر بهذه الحملة الظالمة وخلال هذه الحملة اتخذ الرئيس جمال عبد الناصر قرارا رائعا حيث منـح توفيق الحكيم أعلى وسام في الدولة .

ويقول رجاء النقاش عن موقف لعبد الناصر مـن يوسف ادريس حينما رفض جائزة قدرها الفي جنيـه خصصتها مجلة « حوار » التي كانت تصدر في بيروت عن « منظمة حرية الثقافة العالمية » له كأحسن اديب في العام وقد رفض « أدريس » الجائزة لانه علم وتأكـد

ان المجلة خاضعة للتوجيه الامريكي وحينمـــا علـم عبد الناصر بموقف « يوسف ادريس » امر بصرف قيمة الجائزة كاملة له كما منحه وسام الاداب والفنون .

ثم تحدث رجاء النقاش عن موقف عبد الناصر من نزار قباني بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ حينما كتب قصيدتـــه المشهورة « هوامش على دفتر النكسة » فهاجمته بعض الصحف المصرية وطالبت بمنع دخوله الى الجمهوريـة العربية المتحدة كما طالبت بمنع أذاعة اغانيه وهنـــا ارسل « نزار » قصيدته بخطاب الى عبد الناصر الذي قرا القصيدة والرسالة وكتب بخط يده على رسالـــة نزار بالسماح للقصيدة بالدخول الى مصر وايقاف اي اجراء ضد الشاعر وشعره .

ولذلك لم يكن غريبا ان يكتب نزار قباني بعــد موت عبد الناصر قصيدته المشهودرة :

قتلناك يا جبل الكبرياء
وآخر قنديل زيت
يضيء لنا في ليالي الشتاء
وآخر سيف من القادسية
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنـــا المنيـــة
لماذا قبلت المجيء الينا ؟
فمثلك كان كثيرا علينا .

وكتب الدكتور عبد العزيز كامل في نفس العدد من مجلة الهلال تحت عنوان « الاسلام عند جمال عبد الناصر » ليقول « هذا الايثار والحب كان المحور الرئيسي في حياة الرئيس ، اثر وطنه الكبير .. اثر العطاء على الاخذ .. والتعب على الراحة .. والنضال على المهادنة .. وحل قضايا الحياة اليومية للملايين .. سعادته من ان تشيع السعادة وراحته في ان يستريح الناس » . ثم يواصل حديثه بوصية اوصاه بها عبد الناصر في احدى مقابلاته له اذ قال عبد الناصر : « من اليسير ان نكتب ومن العسير أن تطبق ذلك على الناس فانك قد تجد السوء ممن تنتظر منه التعاون والخير فلا تجعل ذلك يصرفك عن هدفك » ثم يقول « لقد كان عبد الناصر يعيش الاسلام في نفسه . في زهده وتواضعه ، في اعادة الدين الى بساطته والى تطبيقه في حياته اليومية على نفسه وعلى الناس . كان متخففا في طعامه ، طاهرا في بيته وشرابه واهله .. كان الاسلام عنده اسعاد الناس . »

ثم كتب الشيخ احمد حسن الباقوري في نفس العدد « ان في عبد الناصر جوانب كثيرة كبيرة موصولة بعقل ذكي ونظر بعيد فهو اهل لكل صفة كريمة تسبغ عليه ولكل كلمة خير تقال فيه فالذين يرونه

شجاعا ومصلحا لا يعدمون لكل صفة من هذه الصفات اصولا تستند اليها وشواهد تدل عليها » .

وكتبت السيدة سهير القلماوي تحت عنـوان « الثورة الناصرية في الثقافة » في نفس العـــدد « ولعل اهم ما قدمته الثورة الناصرية للشعب في ميدان الثقافة والفن هي الكرامة ... كرامة الفنان فقلدتــه ارفع الاوسمة وأسمى الجوائز وكرمته في كل ميـدان وبكل وسيلة . اما المناخ الذي تتنفس فيه الفنون ومن اخطرها الكلمة فقد هبت عليه ريح اقتلعت كل المقاييس القديمة واذا الكلمة تعبير حر لا يلقى في سبيلها الكاتب عنتا ولا اضطهادا . كم ذا ملئت السجون باصحــاب الكلمة الشريفة !! كم ذا هدد الكتاب والشعراء فــي ارزاقهم في عهد الملكية !! اما الكلمة في الثورة الناصرية فهي التعبير الحر عن الفكر الملتزم بقضية الشعــب . ولم تقف الثورة ضد اي فكر الا الفكر المقوض لمكاسبها او المخرب لخطواتها المنتصرة في سبيل كرامة الكلمــة المعبرة عن الشعب . يمكن ان يوقف القلــم اذا رؤى ضرره ولكن صاحبه لا يضار بسبب الكلمة . والكلمة الشريفة مهما تكن الزاوية التي ترى منها صالح الشعب فان لها المجال لان تعبر ولان تبنى قضايــا الشعــب بأي وسيلة تراها » .

وقال « صالح جودت » في قصيدة بعنوان « بعد الوداع » :

هوى الذي كان ارتفاع السها
وانهار من كان كشم القــلاع
ارادة الله ... ومــا جهدنا
ازاءها الا رضا وانصيـــــاع
ارادة اللـــــه قضت امرهـــا
فينا فقلنا يا جمال الـــــوداع
جمال قــد أرسى لكم نهجه
ونهجـــه أولـــى بكـــل اتباع
يا زورق الاحلام قـــم وانطلق
وانشر على مد الحياة الشراع
وسر علـــى درب جمـــال ولا
تهن وضاعف من خطاك السراع
مسيــــرة الثـــورة لا تنتهـــي
اما نعى الملاح في الغيب ناع
فكلنا ملاحها .... كلنا مـــن
غرس هذا العبقري الشجاع

وكتب « أحمد زين » يوم ٢٩ — ٩ — ١٩٧٠ في الاخبار يقول : « لقد أعطى عبد الناصر الارض للفلاح وللعامل المصنع . وللجيل الجديد العلم والنور مجانا . ولاول مره تساوت الفرص وقلت الفوارق واحس كـل فرد بالحرية الحقيقية ... ماذا يستطيع القلـــــم ان يكتب ؟ ان المجلدات الضخمة تعجز عن التعبير فمــا بالك بالكلمات ؟! ... هل تستطيع ان تتحدث عـــن

البسمات التي ادخلها على القلوب البائسة ؟ هل يمكنها ان تتحدث عن الامال التي وضعها في القلوب البائسة ؟ هل يمكنها ان تصنف فرص العيش التي توفرت والحياة التي تحققت ؟ » .

وكتب « انيس منصور » في نفس العدد من الاخبار « أما ذلك اليوم الاسود يوم تنحى عبد الناصر عن الحكم فكان انفس أيام الامة العربية فقد احسسنا جميعا بأننا يتامى . اما اليوم فان عبد الناصر لم يتنح عنا بل وضعنا امام ارادة الله . فلا شيء يعوضنا عن خسارته المروعة » . ثم عاد ليكتب يوم ١ــ١٠ــ١٩٧٠ « اننا في عصر ما بعد عبد الناصر نتكلم اكثر ونصرخ اكثر وهو لا يتكلم . ونخاف اكثر فقد كان هو الامان وصمام الامان . فاللهم ارحم عبد الناصر وارحمنا من بعده ..... ومن انفسنا » .

وكتب « عبد الرحمن الشرقاوي » في نفس العدد « فالرجل الذي تلخصت فيه أحلام أمة بأسرها ... الانسان الذي شكلت نبضات ملايين القلوب خطاه ... الزعيم الذي ارتبط اسم الوطن باسمه كما لم يرتبط اسم وطن بزعيم من قبل .... المعلم الذي عمر الوجدان بالثقافة والقيم الفاضلة ... الاب الذي ملأ القلوب الخائفة بالامن ... الرائد الذي فجر من الجوانح عزة الكبرياء ... رجل الدولة الذي فرض على عالمنا هيبة العرب ... الاب الذي شعر ابناء

الوطن في ظلاله بالطمأنينة والثقة في المستقبل ... الاخ الذي جعل حياته كلها اثارا نبيلة من نضال جبـــــار لا يهدأ حتى ينتصر الحق ويسود العدل .. » .

وكتب سيد مرعـــي في اهرام ٤ـــ١٠ـــ١٩٧٠ يقول تحت عنوان « كلمـــــة وفاء » « الى روحـــك الطاهرة يا من حررت ملايين الفلاحين المصريين ، يا من ادركتهم بعد شقاء الاف السنين فجئتهم في موعدك وكسرت عن ايديهم الاغلال والقيود واطلقت طاقاتهم فساروا وراءك على اشرف طريق ... لا زالت ماثلة امامي صورتك بين الفلاحين في منطقة دميرة توزع عليهم وثيقة تحررهم وتملكهم الارض التي عاشوا عليها عبيد لها فأصبحوا بفضلك اسيادها .. ثم في منطقة الزعفران وانت تواصل نفس الرسالة وكانت البلاد تحتفل بالعيد الاول لثورتها التي قامت بقيادتك . انك لم تتخلف عن رد حقوق الفلاحين اليهم فبعد ستة اسابيع من قيـــام ثورتك اعلنت قانون الاصلاح الزراعي وفي عيدهـــــا الاول قمت بتوزيع الارض على الفلاحين ... وسيظل دائما عبد الناصر هو أسلوبنا في الفكر وهو مصدر الامل ومفجر طاقات العمل » .

وكتب نجيب محفوظ في اهرام ٢ — ١٠ — ١٩٧٠ حوارا تحت عنوان « كلمات من السماء » ...

ــ حياك الله يا أكرم ذاهب

— حياكم الله وهداكم
— اني احنى راسي حبا واجلالا
— تحية متقبلة ولكن لا ننسى ما سبق من قولي « ارفع صوتك يا اخي »
— نحن من الحزن في ذهول شامل
— لا يحق الذهول لمن تحقق به الاخطار وتنتظره عظائم الامور
— يعزينا بعض الشيء انك الى جنة الخلـــد تمضي
— وسيسعدني اكثر أن تجعلوا من دنياكم جنة
— ان عشرات التماثيل لن تجعلك في خلـــود الذكرى
— لا تنسوا تماثيلـــ اقمتهما بيدي وهمـــا « الميثاق » و « بيان ٣٠ مارس »
— وراءك فراغ لن يملأه فرد
— ولكن يملأه الشعب الذي حررته
— سيبقى ذوقك في صميم الافئدة
— ابنائي هم الفلاحون والعمال والفقراء .

ونشر الاهرام في ٢ — ٢٠ — ١٩٧٠ ان مجلس ادارة الاهرام قرر ان يتعهد الفكرة التي دعا اليهـــا توفيق الحكيم باقامة تمثال لعبد الناصر وقد نشر توفيق الحكيم بيانا قال فيه « لقد جسد الشعب فيك صـــورة حريته لقد جعل منك تمثال الحرية لنا فاسمح لنـــا

وقد فارقتنا ان نقيم لك تمثالا عاليا في ميدان التحرير يشرق على الاجيال ويكون دائما رمزا للامال ومــا ينبغي أن تقيم هذا التمثال سلطة او دولة . لكنه الشعب نفسه من ماله القليل يقيمه » . وكانت السيدة أم كلثوم قد اقترحت أن يطلق على « السد العالــي » اسم « سد ناصر » كما كان يطلق على بحيــرة ناصر تخليدا لذكرى الرجل الذي بنى السد وصنع البحيرة .

ونشرت « رويتر » تعليقا لمناحم بيغن زعيم كتلة جحل في اسرائيل قال فيه « ان الرئيس عبد الناصر كان اخطر اعداء اسرائيل . ان وفاة عبد الناصر تعني وفاة عدو مر . انه كان أخطر عدو لاسرائيل ولهــذا السبب لا تستطيع اسرائيل أن تشارك في حديــث النفاق الذي يملأ العالم كله عن ناصر وقدرته وحكمته وزعامته . » !! ولعل بيغن كان من القليلين الذيـن صدقوا مع انفسهم فلم يغير لون جلده بمرور الوقت كما تفعل الحرباء .

وبعد هذا الذي قرات لم يعد في استطاعتي أن اقرأ أكثر ولا أن اكتب اكثر !!

وتوقفت عن القراءة والكتابة وجمعت ما أمامي من أوراق واعدتها الى المكان الذي كانت فيه .

واخذت اقارن بين هذا الذي قيل بالامس ، وما يقال اليوم ... وهالني ما وجدت !!!

وذرفت بعض الدموع ... بعضها على جمال

... واكثرها على وفاء الرجال !!!

وشعرت في نفس الوقت بالقلق عما ستكتبــه الاقلام المارقة الان وفي كل اوان عن الحكام واصحاب الصولجان لو تغير اتجاه الريح في يوم من الايام . او اذا وافاهم الاجل بعد عمر طويل ... فالموت حق على الجميع ، بل هو الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة !!!

وفي الوقت نفسه نظرت الى صفحات التاريـخ التي تتداولها بين وقت واخر بين الشك والارتياب ... فربما تكون اقلام الامس التي كتبت، ودونت شبيهــــة بأقلام اليوم التي تغيرت وتبدلت !!!

وأقول ربما .. لانني لم اصل بعد الى حـــــد اليقين !!!

القاهرة ـــ مصر الجديدة .

امين هويدي

الفهـرست

هذا الكتاب

- ما هي مفاتيح شخصية عبد الناصر؟
- لماذا تولى رئاسة الوزراء مرتين؟
- كيف كان يتعامل مع وزرائه، وكيف كان يتخذ القرار؟
- كيف استطاع أن يكسر طوق الظروف التي كانت تضغط عليه كرجل دولة وتتحدى طبيعته كرجل ثورة؟
- كيف استطاع أن يوفق بين متطلبات الإعداد لحرب التحرير وضرورات التنمية والحاجات اليومية للجماهير؟
- ما هي الأسس التي بنى عليها استراتيجيته لإزالة آثار نكسة ١٩٦٧، وهل أعدَّ لحرب تحرير أم حرب تحريك؟
- ما هو وجه الحقيقة فيما دار خلال الأيام التي أعقبت رحيل القائد العظيم؟

كل هذه الأسئلة وغيرها يجيب عليها مؤلف الكتاب الذي كان شديد القرب من عبد الناصر، وثيق الصلة بعملية صنع القرار، خاصة في الفترة الواقعة بين وقوع النكسة وانتقال الزعيم إلى جوار ربه. فقد تولىَّ خلال تلك الفترة الحرجة وزارة الحربية ورئاسة المخابرات العامة.

وهذا ثاني كتاب تصدره «دار الوحدة» للمؤلف بعد أن أصدرت له كتاب «أحاديث في الأمن العربي».

الناشر

دار الوحدة
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان